كتابك

١٥٢

ثريا عبد الله

اللغة والمجتمع



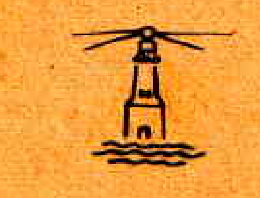
دار المعارف

كتابك ١٥٢

رئيس التحرير أنيس منصور

ثريا عبد الله

اللغة والمجتمع



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدّمة

اللغة نسق من الرموز الصوتية التى شاعت بوسائل شتى ليتعامل بها الأفراد .

هذه اللغة عامل أساسى فى ظهور الصلات الاجتماعية بين البشر ، بل هى عامل أساسى فى المحافظة على المجتمع ذاته .

وبفضل اللغة أصبح للإنسان مكانة ممتازة بين سائر الكائنات ، وخلْق نظام اجتماعى لم تعرفه هذه الكائنات .

واللغة قادرة على التوفيق بين الحضارات ، فهى توسع من مدى الاتصال بينها ؛ وبذلك تتسع رقعة المجتمع .

ولاختلاف اللغة وصعوبة التفاهم أثر بين فى سوء الفهم المتبادل بين الشعوب ، واضطرار بعض الشعوب إلى التقوقع وإساءة الظن بجيرانها ، وقد تؤدى كلمة غير موفقة إلى إشعال نيران الحرب أو الثورة .

ومع تسليمنا بأهمية اللغة فى دعم المجتمع ، ودوره فى خلق اللغة — فإننا لا نقر ما ذكره بعض العلماء مثل العالم السويسرى دوسوسير من أن المجتمع هو المؤثر الوحيد على اللغة ؛ لأن معنى هذا هو تناسى العوامل الجسمانية والنفسية والفيزيولوجية .

ولا يفوتنا فى هذا الشأن أن نشيد بجميع المؤلفات العربية الكثيرة التى ظهرت فى علم اللغة ، وأولها كتاب علم اللغة للعالم العظيم الدكتور على عبد الواحد وافى ، حفظه الله وأثابه ، فالكثير من المصطلحات فى هذا البحث الصغير مدين له ولتلامذته .

ثريا عبد الله

١ - المجتمع وأصل اللغة

اللغة ظاهرة عادية فى حياتنا ، وقد يعتبرها بعض أمراً آلياً فطرياً كالتنفس أو الهضم ، وغير ذلك من العمليات العضوية ، غير أننا إذا تأملنا هذه الظاهرة فسنرى أن اللغة ليست مسألة فطرية أو آلية كما تبدو للوهلة الأولى ؛ إذ يجب تدريب الطفل على كيفية التكلم ، ويحتاج هذا التدريب إلى وقت طويل ، فاللغة ليست مسألة وراثية ، ولكنها فن ينتقل من جيل إلى جيل عن طريق التعلم المركَّز.

والطفل عالم بلغات كثيرة بالقوة ، وخبير الصوتيات المتمرس يستطيع أن يكتشف فى هرف[1] هذا الطفل بعض شذرات من كل لغة عرفتها البشرية ، ومع هذا فإننا لا نستطيع تسمية هذا الهرف - باللغة ؛ لأن أهم شرط فى اللغة هو موضوعيتها ؛ أى أن تكون رموزاً مشتركة بين المتحدث والسامع ؛ فالأصوات وحدها لا قيمة لها إلا إذا ترجمها المستمع أو المستقبل على الفور إلى معانٍ مفهومة .

ولو أردنا إدراك الدور البالغ الأهمية الذى تضطلع به اللغة فى سلوكنا

---

(١) هرف الرجل هرفاً : هَذَى ، يقال فلان يهرف بما لا يعرف . . .

« المعجم الوسيط » .

الاجتماعى فما علينا إلا أن نتصور مجتمعاً بلا لغة ، محروماً بالتبعية من الدراية بالكتابة أو غيرها من سبل توصيل المعرفة المعتمدة على التعبير. هذه الحالة تخلق مجتمعاً أشبه بمجتمعات الدواب ؛ لأن سبيلنا الوحيد للتعلم هو تكرار ما نفعل أو ملاحظة ما تفعله الكائنات المماثلة لنا . والنتيجة الأخرى لعدم وجود اللغة هى فقدان كل ما يدعى بالتاريخ ؛ فبغير اللغة ستختفى كل وسيلة لإعادة إحياء تجارب الماضى وسبل نقلها للآخرين ؛ فاختفاء اللغة يعنى اختفاء سبل التعبير عن أفكارنا وخواطرنا لأقراننا من البشر ، ولن يُستَبعد فقداننا نهائياً للقدرة على التفكير . ويتمخض اختفاء اللغة عن عجز المجتمع عن القيام بكل ما هو ميسور للبشر ؛ فبغير اللغة تفتقر الجماعة إلى القدرة على تخطيط أى أنشطة أو توضيحها للآخرين ، أو توجيهها إلى الغاية المشتركة ، فيكتفى كل فرد بالاعتماد على نفسه وقدراته ، ويفتقر إلى القدرة على طلب العون من الآخرين .

وبغير اللغة لن ينمو السلوك والعادات التى تخلق الثقافة أو الحضارة ، وينحط أى مجتمع بلا حضارة إلى حضيض مجتمعات القرود أو حتى أصغر الكائنات ؛ فللقرود تركيب بدنى مشابه لتركيب أبداننا ، والقرود تشبهنا فى القدرة على التعلم من الخبرة ومن الملاحظة الحسية وتقليد أفعال الآخرين ؛ فقد أثبتت التجارب أن القرود قادرة على تعلم استعمال الأدوات ، بل قادرة أيضاً على اختراعها . وعلى الرغم من قدرة القرود على سهولة التعلم ، وقدرة كل منها على حدة على اكتساب المعرفة — فإنها

فى مجموعها قد عجزت تماماً عن خلق أى حضارة .

وثمة سببان لذلك : أولهما هو افتقارها إلى اللغة ، فلا وسيلة للقرود تساعدها على الاحتفاظ بتجاربها فى استعمال الأدوات وحرفيتها أو تقنيتها . وعندما ينجح الفرد فى حل مشكلة من مشكلات المعرفة فإنها تظل خاملة يتذكرها فقط عندما تصادفه مشكلة من النوع نفسه ، ولكنه لا يستطيع التمعن فى معرفته وابتكار وسيلة لاستعمالها فى حل مشكلة أخرى ! أما الإنسان فقادر على ذلك ؛ فزيادة على تمتعه بالقدرات المتوفرة نفسها للكائنات الأولى فإنه بفضل اللغة يستطيع مواصلة حل مشكلاته والتسامى على التجربة الحسية . وباختصار فاللغة هى التى تساعد على تنمية التجربة وتحريرها من التقطع الموجود فى تجارب القرود ؛ وبذلك يتحقق التقدم والارتقاء .

وبفضل اللغة اشترك الإنسان مع أقرانه فى التجارب والأفكار واستطاع أن يجسم تجاربه الشخصية لنفعهم بعكس القرد الذى لا تخص معرفته المكتسبة عن طريق التجربة والملاحظة أحداً سواه ؛ فمهما بلغ أى قرد من مهارة فى استعمال الآلات وحرفيتها فإن ذريته مرغمة على البدء من جديد مثلما بدأ هو : أى بالتجربة والملاحظة . والقرد المتعلم لا يستطيع نقل معرفته لباقى القرود حتى ييسر لهم الاستفادة بما عرف . والحضارة الإنسانية أبلغ دليل على ما يستطيع الإنسان إحرازه من تقدم ؛ فلكل جيل تراث من التقاليد المتناقلة بالسماع ، وتحتوى على

المعرفة المتراكمة من الأسلاف السابقين ، وهكذا استطاع أن يضيف إلى رصيده تجارب الجدود السابقين وملاحظاتهم ، ثم نقلها إلى الأجيال اللاحقة ، هذه الظاهرة هى التى تفرق بين معرفة مجتمعات البشر ومعرفة مجتمعات الحيوانات .

وإذا حاولنا معرفة أصل اللغة فإننا لن نصادف وثائق تدلنا على : متى بدأت أى لغة من لغات البشر ؟. وكل ما نستطيع أن نتيقنه هو : متى بدأت لغة الكتابة ؟ إذ لا وجود لأى آثار فى مخلفات الماضى للغة المنطوقة يستدل منها على كيف كانت حال اللغة قبل معرفة البشرية لتقنية الكتابة ؟ ولعل هذا يفسر : لماذا اتجهت الجمعية اللغوية فى باريس إلى رفض أى أبحاث عن أصل اللغة ! ومع هذا فإن الحيوان الميتافزيقى القابع فى أعماقنا لن يكف عن دفعنا إلى البحث عن أصل اللغة .

ولذا اتجه العلماء إلى تصور أن حالة المجتمعات الأولى لا تختلف هى وحالة المجتمعات التى ما زالت تعيش فى بداوة فى عصرنا الحالى ، أو إلى الاعتقاد بأن سلوك الأطفال لا يختلف هو وسلوك الإنسان الأول . ولكن هذه النظرة قد تعرضت للنقد فى القرن العشرين بعد أن اتضح أن الشعوب التى نتصورها بدائية لديها تراث حافل من اللغات المحكمة البناء الغنية بالمفردات ، ولها مميزات قد لا تكون موجودة حتى عند المجتمعات الناهضة ؛ ولذا فإننا ما زلنا لا نعرف على وجه الدقة أصل اللغة والظروف التى بزغت فيها ، والخطوات الأولى التى مرت بها فى تطورها ، وما زلنا

نعتمد على الفروض التى نستطيع أن نجملها فى فرضين :

الأول الصيحات الفطرية Onomatopeia والآخر محاكاة أصوات الطبيعة أو الأصوات الصادرة من جوف الإنسان .

وتعتمد النظريات التى تؤمن بأن الصيحات اللاإرادية هى أصل اللغة على وجود ألفاظ كثيرة فى اللغة الحديثة مستمدة من بقايا كلمات عتيقة استعملها الإنسان فى بواكير حياته ؛ ومن هنا جاء الاستنباط بأن باقى الكلمات مستمدة على نحو ما من هذه الأصول الأولى للكلمات . وترى هذه النظريات أن كلمات مثل Bow أو Vow أو Meow أو Choo أو Ding Dong فى اللغة الإنجليزية مستمدة من محاكاة صيحات الحيوان أو من المواء أو هدير الماء ، ومن هذه الأصول الأولى استمد الإنسان مئات اللغات التى يتكلمها الآن .

والافتراضان هزيلان لا يحلان المشكلة ؛ لأنهما يهربان من التعرض لأشكال اللغة أو بنائها ؛ فلا الصيحات اللاإرادية أو الكلمات المحاكية لأصوات الطبيعة من الأشكال الحق للغة . ونحن لا ننكر أننا نصادف أصوات الصيحات اللاإرادية فى أية استجابة أو استثارة من انفعال قوى ، ولكنّ هناك اختلافاً بين أية صيحة دالة على الخوف أو الاضطراب وبين الكلمة ! Oh ، لأن الصيحة ترمز إلى جزء من الاستجابة ، ولكنها لا ترمز إلى معنى الدهشة مثلما يحدث فى ! oh ؛ وعلى هذا فإننا سنتبع الرأى القائل بأن جميع الرموز اللغوية مجرد

مصطلحات متفق عليها ، وكلها من صنع الإنسان . ولابد أن نتعلم ما تعنيه هذه الكلمات ، لأن أحداً لا يتعلم الصيحات اللاإرادية . وقد يقضى الطفل شهوراً فى الصياح قبل أن يتعلم الكلام .

لقد ازددنا ابتعادا عن بيئتنا الطبيعية ، وأصبحنا نعيش فى وسط اجتماعى من صنعنا ، وبذلك أصبحت الألفاظ الممثلة للطبيعة لا تعنينا كثيراً بالمقارنة بالألفاظ التى ابتكرناها تجاوباً مع المجتمع الدائم الاتساع والذى تمتد آماله وأمانيه فى المستقبل البعيد ؛ فالإنسان هو الكائن الأوحد الذى يحفظ بين ضلوعه آثاراً من الماضى والحاضر ومن التطلع إلى المستقبل .

وإذا رجعنا إلى الكلمات التى تحاكى أصوات الطبيعة أو البيئة فسنرى أنها لن تستطيع تحقيق مهمتها فى التعامل الإنسانى إلا إذا أقر المجتمع دلالتها على المعنى المنشود : فكلمة مثل Ding Dong فى اللغة الإنجليزية لا تزيد عن اصطلاح اجتماعى يمثل صوت الجرس ، ولا يصح القول باعتراف الجميع بأصلها باستثناء من يتكلم الإنجليزية وتعلم الربط بين صوت Ding Dong ورنين الجرس ، ولكى ندرك كيف ظهرت اللغات إلى الوجود علينا أن نعرف كيف وطد الإنسان عاداته العشوائية واستعداده لوضع المصطلحات ، وربط بين أصوات الكلمة والتجربة . والتفسير الوحيد للافتراض القائل إن الكلمات أصوات تحاكى الطبيعة هو أن الإنسان قد أطلق أحياناً على الأشياء والأفعال أسماء تتوافق هى

وما تحدثه من أصوات ، وأن مثل هذه الأسماء قد انطوت فى بعض المناسبات تحت لواء اللغة .

من هذا يتضح أن أى نظرية نافعة عن أصل اللغة يلزم أن تعتمد على تحليل واف دقيق للغة الحديثة . وتكشف مثل هذه الدراسات أن أى مكونات للكلام من كلمات وعبارات وجمل إنما هى مجرد رموز مبتكرة لا وجود لها فى الواقع . ونعنى بذلك أن مثل هذه الرموز ليست من مكونات الواقع أو التجربة التى عُبر عنها برموز فى اللغة : فمثلاً الأصوات المتعاقبة التى تتألف منها كلمة « حصان » ليست مرتبطة ارتباطاً ضرورياً بفئة الحيوانات التى رمزت هذه الكلمة إليها : أى أن كلمة « حصان » لم تجئ نتيجة لاى تشابه حقيقى مع الحصان الذى فى الواقع . وكل ما هناك أن مجتمع المتكلمين باللغة العربية قد تعلم الربط بين الأصوات التى تظهر فى شكل « حصان » عند كتابتها ، وبين فئة من الحيوانات هى فئة الأحصنة . تماماً كما تعلموا الربط بين كلمتى « كلب » و « قطة » وأنواع بعيدة الاختلاف من الحيوانات .

وهكذا يتبين دور المجتمع فى خلق اللغة من أصوات وتراكيب متفق عليها ؛ فاللغات تصدر دائماً عن جماعات من الأفراد ، ولا تعنى إطلاقاً فرداً بمفرده ، والفرد يكتسب لغته من الجماعة التى يحيا وسطها . وإذا انحرف بعيداً فى طريقته فى الحديث عن باقى أفراد الجماعة فإنه يتعرض لخطر إساءة فهم مقصده أو عدم فهمه على الإطلاق ؛ فكلمة « حصان »

ليست كلمة خاصة بشخص مفرد ، إنها كلمة معروفة ومفهومة لدى جميع الناطقين أو الملمين باللغة العربية .

والوظيفة الأساسية للغات فى مجتمعات البشر هى تحقيق الاتصال بين الأفراد والتعاون بينهم ؛ فبفضل اللغة يستطيع الفرد تجسيم تجاربه الشخصية وتصويرها ؛ وبذلك يتسنى له اطلاع الآخرين عليها ، وإلى جانب ذلك – يتسنى له التنسيق بين جهودهم ؛ وعلى هذا النحو تتعاون جماعات الأفراد معاً فى المهام البالغة المشقة أو المعقدة التى يعجز فرد واحد عن النهوض بها :

ولنوضح هذه النقطة فلنتخيل رجلاً اصطاد فريسة وحاول الإمساك بها ، أو نقلها من مكان لآخر ؛ فلم يستطع : فى هذه الحالة – فإنه يترك الفريسة ، ويعود إلى مأواه فى القرية ، وهناك يروى للآخرين ما حدث ، ويطلب منهم العون . ويعود هؤلاء الآخرون معه إلى فريسته ويساعدونه فى سلخها ، وتقطيعها إرباً إرباً وحملها إلى المأوى . وخلال هذه العملية ، يتولى أحدهم اعتماداً على الكلمات توضيح الغاية المطلوبة ، وتوزيع الواجبات على جميع الأفراد ، بدلاً من ترك الأمر عشوائياً .

وإذا قارنا بين ما حدث فى المثل السابق وبين مثل آخر اشترك فيه قطيع من الذئاب فسنرى أنه عندما يقدر ذئب على افتراس فريسة مماثلة فإنه ينهش من لحمها بقدر ما يستطيع لعجزه عن تعريف باقى القطيع بما حدث له ! بيد أنه لو أمكن باقى الذئاب رؤيته فى أثناء صيده للفريسة أو

فى أثناء نهشه لجثتها فإنها ستشاركه لا محالة بلا دعوة وستلتهم كل ما يستطاع التهامه . أما إذا كانت الجثة هزيلة لا تكفى الجميع فإن ضعاف الذئاب لن ينالها منها شىء .

من هذا يتضح أن محاولات الذئاب اقتسام الفريسة عشوائية متفرقة تعتمد على الجهد الفردى ، بلا أى تعاون أو تنسيق .

ولا يستبعد أن تكون الكائنات العتيقة التى سبقت الإنسان فى الظهور قد عاشت فى قطعان مشابهة لقطعان حيواناتنا الحديثة ؛ إذ كان التعاون بينها بالغ الضآلة ، أى يعمل كل منها لنفسه فقط ، وكل ما يفعله للآخرين هو رعاية صغار هذه الحيوانات .

ومع هذا فلابد أن يكون جدود الإنسان البدائى قد أُرغموا على تنسيق جهودهم بقدر ضئيل ، إذ كانت بنيتهم أقل ضخامة من بنية جدود الحيوانات الأخرى التى تحيا فى البيئة نفسها . ولابد أن يكون الإنسان قد شعر بأن دفاعه عن نفسه ضد الحيوانات التى هى أقوى لن يكون فعالا إلا إذا تعاون هو وأقرانه من البشر . وشاع هذا التعاون ، وتحول إلى عادة تطورت واتجهت إلى تحقيق التعاون فى مهام أُخرى غير الدفاع عن النفس كصيد الحيوانات الضخمة من أجل الغذاء . ونحن نلاحظ فى يومنا هذا كيف تشترك قطعان الذئاب فى الصيد ، وتنسق جهودها بقدر ما لديها من قدرات فطرية على التعاون والتخاطب .

على أن التعاون بين أبناء البشر لم يكن العامل الأوحد فى خلق اللغة ،

فالكثير من جماعات الحشرات تحقق مثل هذا التعاون بغير لغة ، وإن كان التعاون بين الحشرات يعتمد بلا جدال على أساس مختلف عن الأساس السائد بين أبناء البشر الذين يختلفون ، والحشرات الاجتماعية التى تعجز عن القيام بأكثر من دور واحد فى مجتمعاتها . أما أبناء البشر فمطالبون باهتمامات متعددة تحتم عليهم تكييف سلوكهم حتى يتوافق مع الأدوار الكثيرة المطلوبة منهم فى المجتمع ، واللغة أداة حيوية لنجاح هذه الأدوار .

ولن يُقدر لنا على الإطلاق معرفة كيف أمكن جدود الإنسان الاعتماد على اللغة كأداة لتحقيق التعاون ، ونستطيع الزعم بكل اطمئنانٍ أن جدود الإنسان الأول استطاعوا ابتكار أصوات متعارف عليها . ولعل الأصوات التى كانت تصحب المهام التى يقومون بها معاً قد تحولت شيئاً فشيئاً إلى رموز لأفعالهم المتعددة .

وقصارى القول أن اللغة قد بزغت نتيجة لتعلم البشر كيف يعملون معاً لتحقيق غاية مشتركة .

٢ - دور المجتمع فى تغيير اللغة

كل اللغات تتعرض للتغير المستمر ، وبوسعنا البرهنة على ذلك : إما بدراسة تاريخ أى لغة من اللغات أو بمقارنة اللغات الحديثة الكثيرة التى نتحدث بها الآن . ولن تستطاع دراسة تاريخ اللغة دراسة مباشرة إلا فى حالات إلمام أى مجتمع يتحدث بهذه اللغة بالكتابة منذ عهد طويل . ولقد ظهرت أولى وثائق مكتوبة بالإنجليزية على سبيل المثال سنة ٩٠٠م ، ثم استمرت الوثائق بلا انقطاع تقريباً حتى عهدنا الحاضر ، ويتبين من فحص هذه الوثائق التغيير الجذرى الذى تعرض له نطق اللغة الإنجليزية ونموها ومفرداتها .

ومن ناحية العلاقة بين المجتمع واللغة الذى يهمنا فى قضية تغير اللغة هو البحث عن أسباب تغير اللغات . وقد عُزى هذا التغير إلى جملة أسباب ، وإن كنا إلى الآن مازلنا فى حيرة بسبب نقص تحليل هذه الأسباب وفجاجتها ، ومن أسباب ضآلة معرفتنا بالأصول الفعلية لتغير اللغات - أننا حتى الآن قد ركزنا على نتائج التغيير ، ولكنا لم نعن بالقدر الكافى بالعلاقة الوظيفية بين اللغة وباقى جوانب ثقافة المجتمع، وثمة ارتباط واضح بين اللغة وثقافة المجتمع يتجسم فى صورة إضافة المفردات إلى

المفردات الشائعة . وكلما ازدادت الثقافة رقياً وتعقداً ازداد أيضاً تعقد مفردات اللغة المرتبطة بها : فاللغة الإنجليزية الوثيقة الصلة بسلسلة شديدة التعقد من الثقافات ، لديها فى الوقت الحالى مفردات أكبر وأعقد مما كان لها فى عصر اللغة الإنجليزية القديمة عندما كانت ثقافة متحدثيها أبسط كثيرًا مما هى عليه الآن ، وفضلاً على ذلك فإننا نستطيع أن نبين كيف كان تغير اللغة الإنجليزية التى أركز الكلام عليها بحكم تخصصى فيها – أسرع فى خطاه خلال العصور الوسطى والعصر الحديث من تغيرها فى عصر اللغة الإنجليزية القديم .

ومن المحتمل أن تكون سلسلة التغيرات البالغة السرعة من اللغة القديمة إلى اللغة الجديدة مرتبطة بالنقلة من المجتمع الزراعى البسيط فى أثناء شيوع اللغة القديمة إلى المجتمع الصناعى الذى يحيا فيه متحدثو اللغة الإنجليزية الآن ، ولقد تغيرت بعض اللغات الأوربية تغيرًا أقل من تغير اللغة الإنجليزية ، ومن الأمثلة البارزة اللغة الليتوانية التى لم تتغير إلا لماما ؛ فهى مازالت تحتفظ بالكثير من خصائصها القديمة على حين اختفت نظائرها فى اللغة الإنجليزية . والمهم فى هذه الظاهرة هو أن ليتوانيا كانت أقل تأثرًا بالتغيرات الحضارية من البقاع المتحدثة بالإنجليزية ؛ فلقد ظلت ليتوانيا إلى حد كبير منطقة زراعية منعزلة تشارك فى الحضارة الأوربية الحديثة بقدر أقل من البقاع المتحدثة بالإنجليزية .

ولو أردنا العثور على مثل ملموس للتغير المحتم فى اللغة يكفينا أن نتتبع

ما حدث للغة إبان القرون الأخيرة . وثمة مثل أبسط هو مقارنة أعمال الصبا لكبار الأدباء بأعمال شيخوختهم : فمن منا لم يلق عناء عند قراءة المعلقات فى الشعر الجاهلى ، وهو العناء الذى يشكو منه الفرنسيون المعاصرون عندما يقرءون La Chanson de Roland (من القرن الثانى عشر) ويشكو منه الإنجليز عندما يقرءون حكايات كانتربرى للشاعر البريطانى تشوسر (١٣٤٠ - ١٤٠٠) وكل شىء فى اللغة يتعرض إلى التغير من نبر وصوتيات ومتن . . . إلخ . ومن حسن الحظ أن اللغة لا تتغير تغيراً كاملاً ؛ إذ تبقى منها بعض ملامح تساعد على اتصال القديم بالحديث ، وإلا تعذر فهم أى جيل لما سبقه من أجيال .

وعندما نذكر اللغة اليونانية القديمة فإننا نتوهم أن هناك لغة واحدة تستحق اسم اللغة اليونانية ، ولكن البحث أثبت أن اليونانيين لم يعرفوا لهجات مختلفة فحسب ، ولكن كل لهجة من لهجاتهم عبارة عن جملة لغات .

إذن كيف يحدث التغير فى اللغة ؟ إنه يحدث على مستويات مختلفة أسماها ، هو التغير الذى يحدثه علماء اللغة والأدباء . ويتدخل الرسميون أيضاً فى اللغة فيحورونها وفقًا لأغراضهم السياسية . أما رجل الشارع فملول ميال للتجديد والتنويع . وعندما تظهر كلمة جديدة أو تعبير جديد يشيع بين أبناء المجتمع الذين قد يرحبون به أو يتجاهلونه فيضيع فى زوايا النسيان ، وقد آمن علماء اللغة أخيرًا - ومن بينهم أساتذتنا فى المجمع

اللغوى – بضرورة رضاء الشعب عن المصطلحات التى يستحدثونها فى اللغة ، ومن هنا اختفت ألفاظ مبتكرة كثيرة صحيحة من الناحية اللغوية ، ولكنها كانت سيئة الحظ لأنها لم تتجاوب مع آذان المتحدثين ، ولذا رفضت ولم يقدر لها الحياة .

ونتحدث الآن عن أمثلة لكلمات كانت محظورة فى القرون الماضية ، ثم حدث تغير فى العادات الاجتماعية فأفرج عن هذه الكلمات . فمثلاً كلمة Human Legs كانت مكروهة لأنها تخدش الحياء ، ومن ثم استعاضوا عنها بكلمة Limbs وفى عصرنا الحالى تغير معنى كلمة Limbs عن معناها فى العصر الفيكتورى ، وعندما كنا صغاراً كان من المحظور علينا نطق اسم أى فقيد عزيز ، ولذا كانوا يحرمون على الصغار ذكر هذه الأسماء ، ويستعاض عنها بتلميحات . ومن العجيب أن هذه العادة موجودة عند قبائل الإسكيمو أيضاً كما ذكر العالم الاجتماعى جوزيف برام .

وعندما يظهر معنى جديد يختار الناس أحياناً إحدى الكلمات الشائعة التى تمت بصلة إلى هذا المعنى الجديد بدلاً من ابتكار كلمة مستحدثة ، ثم تُحور شيئاً فشيئاً ، ويتناسى الناس أصلها ! فمثلاً قلائل يعرفون أن كلمة Spinning بمعنى الغزل هى أصل الكلمة Spinster بمعنى العانس ، باعتبار أن الغزل كان علامة مميزة للعوانس . وقلائل أيضاً يعرفون أن Daisy بمعنى مهوش أو مزغلل مأخوذة عن كلمة Day's Eye التى تعد كلمة مجازية تشير إلى الشمس .

والكلمات كالدول تصاب أحياناً بداء التقلص أو التوسع والإمبريالية : فمثلا كلمة Deer كانت فى البداية تطلق على الغزال ، ثم أصبحت تعنى أيضاً كل أنواع الحيوان . وفى أحيان أخرى ينكمش المعنى الموسع ويتحول إلى معنى محدد : فكلمة Meat كانت تعنى فى الإنجليزية القديمة الأكل بوجه عام ، ثم أصبحت تدل على معنى اللحم فقط . والظاهر أن الإنجليز كانوا لا يعتبرون أنفسهم قد أكلوا إلا إذا أكلوا لحماً كما يحدث عند بعض المصريين ، وأحياناً يتحول معنى الكلمة من التعبير عن التوتر والجهد والقوة إلى معنى مقابل : أى للتعبير عن حالات الدعة والضعف فقد تحولت كلمة Gêner الفرنسية التى تعنى فى الأصل « يعذب » إلى معنى « يضايق » أو « يقلق » . وكثيراً ما تتغير المرتبة الاجتماعية للكلمة : فكلمة Cnight الإنجليزية كانت تعنى الصبى أو الخادم . وفى اللغة الحديثة تعنى (فارس) (Knight) ، وعلى عكس ذلك كلمة Steward التى كانت تعنى « ناظر الخاصة » عند الإقطاعيين وفى الاستعمال الحديث تعنى « جرسوناً » فى مقهى أوسفينة .

وقد يبدأ التغيير أحياناً بحجة تسهيل اللغة أو الاعتراف بشرعية الخطأ الشائع كمؤشر يدل على أن المتكلمين محقون فى هذا الخطأ . ويعتقد بعض أن هذا التدخل يسىء إلى اللغة . واتخذ أحد اللغويين الأمريكيين شعاراً نادى فيه بضرورة « الابتعاد عن التدخل فى اللغة » وارتكن الجناح المحافظ فى اتجاهه على العوامل الآتية :

١ – تعديل الكلمات السائدة يؤدى إلى سوء الفهم .

٢ – الاستعمال الحسن للغة يساعد على الدقة ، فإذا أتقن الجميع لغتهم فإنها لن تكون بحاجة إلى أى تغيير .

٣ – الدقة فى الكلام ومراعاة القواعد الصحيحة تنعكس على الانضباط والسلوك القويم .

٤ – يجب أن تتمتع الكلمات والتعابير والتراكيب اللغوية بنفس الخلود الذى نمنحه للتراث الأدبى .

٥ – يرى بعض أن تشجيع الخطأ وعدم إصلاحه مقدمة لكل انحلال وتسيب .

وهكذا فإننا نصادف فى مسائل تغير اللغة اتجاهين . محافظاً وتقدمياً . ومع هذا فإن المجتمع لا يعترف بالمعسكر المحافظ بالذات لأن عملية التطور والتفاعل الاجتماعى لا تؤيد أى اتجاه محافظ ، وغالباً ما تعجز اللغة عن الاحتفاظ بنقائها طويلا . فإذا كانت هذه اللغة مجرد لهجة من اللهجات التابعة للغة أساسية فإنها سرعان ما تتفاعل هى ولهجة أخرى ، وتنتصر اللهجة التى هى أسهل وأقرب إلى وجدان المتكلمين .

وهكذا انتصرت لهجة القاهرة على باقى لهجات مصر ، ولا يستبعد أن تحل فى القريب محل سائر لهجات البلاد العربية . وفى فرنسا حدث شىء مماثل ؛ إذ انتصرت لهجة باريس على لهجة الشمال Langue D'oil وعلى لهجة الجنوب Langue D'oc

وأحيانا تتعرض اللغة للدمار بتأثير الأحداث الاجتماعية ، كما تبين من المثل الآتى : فقبل سنة ١٨٦٨ كانت بورتريكو مستعمرة إسبانية ، تديرها حكومة تتحدث باللغة الكاستيلينية . وكانت حاميتها العسكرية وكذلك الكنيسة وجميع الأسر العريقة تتحدث بالكاستيلينية ، وتوفد أبناءها للتعلم فى إقليم كاستيلينيا بإسبانيا . ومع هذا فقد كانت أغلبية الشعب تتكلم لهجة الطبقة الفقيرة بإسبانيا . وتعرضت اللهجة الوطنية للسكان الأصليين فى الجزيرة إلى التغير بتأثير الحكم الإسبانى الذى دام أربع سنوات ، وامتزجت بهذه الإسبانية آثار من اللغات الأفريقية التى كان يتحدث بها العبيد الأفريقيون ، وكذلك بجملة لغات أخرى كالهولاندية والإنجليزية والبورتغالية والفرنسية . والكورسيكية . إلخ .

وعندما انتقل حكم بورتوريكو من الإسبان إلى الأمريكيين انتهت اللغة الكاستيلينية من الجزيرة ، وتكلمت الطبقة الدنيا لغة الطبقتين الوسطى والعليا نفسها . وبعد أن سيطرت أمريكا اقتصادياً على بورتريكو ازدادت حركة الانتقال والهجرة من مكان لآخر ، وانتهت العزلة السابقة التى عاشتها بعض طوائف السكان ؛ إذ كانوا دائمى الانتقال من الريف إلى الجبال ، ومن الجبال إلى الشواطئ ، وغزت الألفاظ الأمريكية البلاد عن طريق السينما والألعاب الرياضية والمدارس والمكاتب الإدارية .

وهكذا نصادف فى هذا المثل جملة أطوار للغة : الطور الأول هو طور جملة لغات مشتتة ، أعقبه ظهور لغة واحدة تناسب مختلف العامة .

والطور الأخير هو سيطرة اللغة الأجنبية الكاملة على لغة البلاد ، وبوسعنا أن نجمل الظواهر الاجتماعية التى تؤثر على اللغة فيما يأتى :

١ – انتقال السكان الزراعيين إلى المدن .

٢ – نزوح مهاجرين أجانب أو عبيد بعاداتهم اللغوية .

٣ – غزو إحدى اللغات الأجنبية نتيجة للغزو الخارجى ؛ كما حدث عند فتح العرب لإسبانيا أو الرومان لفرنسا أو النورمانديين لبريطانيا .

٤ – تأثير العناصر النازحة من رجال دين وتعليم ومقاتلين . وهذا يؤثر على كل عادات الكلام .

٥ – اختلاف اللهجات فى المراكز الصناعية أو الموانى أو الجيوش .

٦ – تأثير أجهزة الإعلام من راديو وصحف وتليفزيون .

٧ – انتشار عقائد جديدة كتأثير الإسلام أو المسيحية أو مذاهب فلسفية مثل مذهب ماركس أو داروين .

٨ – التغير فى المركز الاجتماعى للمرأة .

٩ – شيوع تيارات التسيب اللغوى والبدع اللغوية .

١٠– سيطرة الدهماء على أسلوب التخاطب .

هذا عن التغير التلقائى للغة ، ولكن هناك أمثلة أخرى للتخطيط المرسوم لتغير اللغة وتوجيهها .

أولها : حركات التطهير اللغوى باسم القومية كما حدث فى عهد كمال

أتاتورك عندما قام بعملية مسح كامل للمجتمع التركى و « طهر » كما قيل حينئذ اللغة التركية من الألفاظ العربية والفارسية واستعاض عن الكلمات المستبعدة بأخرى تركية .

ثانيها : تأثير الحضارة الغربية ، وهذا ملحوظ فى دول آسيا بوجه خاص : فهناك حركة ترجمة نشيطة للألفاظ الأجنبية ، أو تطويع للكلمات نفسها مع تغيير طفيف فى صوتياتها .

ثالثها : المجمعات اللغوية وأبرز مثل لها هو الأكاديمية الفرنسية التى أنشأها الكاردينال ريشيليو ١٩٣٥ ، وقامت بمراجعة جميع المعاجم ، واتجهت اتجاهاً محافظاً ، فاستبعدت كل الألفاظ المشكوك فى شرعيتها .

ولابد فى نهاية الكلام من الإشادة بدور بعض عظماء الكتّاب فى تنقيح لغتهم ؛ كما حدث فى إيطاليا بفضل دانتى الليجيرى ، أو فى ألمانيا على يد مارتن لوثر ، أو بوشكين فى روسيا . واليوم أصبحت العزلة اللغوية مستحيلة ، ولابد من تخصيص فصل آخر للكلام عن تفاعل اللغات وصراعها .

٣ - التفاعل بين اللغة ومقومات المجتمع

(١)

لا اختلاف على القول بوجود ارتباط بين اللغة والظواهر الاجتماعية ، واللغة لها تأثير واضح على سلوكنا وتفكيرنا ، كما أنها تتأثر بدورها بهذا الفكر وهذا السلوك . ولكن المفكرين لم يقتنعوا بهذا القول البديهى ، واتجهوا إلى تصور الإنسان خاضعاً خضوعاً كاملاً للغة وقالوا : إنها تتحكم فى طريقة تفكيرنا ، وليس الإنسان حرًّا على الإطلاق فى وضع ما يروقه من النظريات ، لأن تصوراته قد رسمت مسبقاً ؛ فاللغة هى التى حددت صور الزمان والمكان وعلاقات الأشياء بعضها ببعض !

وهذه النظرية قد ظهرت فى مقابل النظرية السائدة التى تعتقد أن اللغة مرآة للواقع الذى نعيه دون وساطة من اللغة ، ثم تجىء اللغة بعد ذلك لوصف هذا الواقع . ولما كان هذا الواقع متشابهاً إلى حد بعيد فى تصور الجميع : لأن البيئة والمجتمع لا يختلفان فى نظر الكل - فلذا لا غرابة إذا تماثلت اللغات جميعاً فى جوهرها ، وفى طريقة وصفها لهذا الواقع .

وتعارضت هذه النظرية أيضاً مع الفكرة القائلة بأن سلوكنا هو الذى يحدد أقوالنا : أى أن الناس يفعلون أولا ، ثم يصفون بعد ذلك أفعالهم .

وهذه البديهيات قد تعرضت لهجوم قوى من العالمين اللغويين سابير Sapir وهورف Whorf، اللذين رفضا الاعتقاد بأن اللغة أداة تسجيل سالبة تعكس الواقع السابق لها فى الوجود الذى نحن على دراية به، وقالا : إن اللغة عامل أساسى فى تشكيل تصورنا للواقع وطريقة إدراكنا له، وكذلك اتجاهاتنا إزاء أقراننا وسلوكنا : أى كل ما يؤلف الظواهر الاجتماعية ؛ فما يحدد كل هذه الجوانب هو اللغة المفروضة علينا، وليس حقيقياً أن اللغات تشترك فى الكثير من أوجه الشبه : فهناك اختلاف جذرى بينها يؤثر بالتبعية فى تصورات مختلف المجتمعات وإدراكها وسلوكها. والواقع لا يزيد عن انعكاس للغة السائدة فى المجتمع ؛ ومن ثم تكون هناك كثرة من «الواقع» بعدد ما هناك من لغات. ولما كان لا وجود للغة عالية نستطيع أن نحتكم إليها للحكم على اللغات الفعلية – فلذا لا وجود لوسيلة للاختيار بين التصورات المختلفة للواقع أو الصور المختلفة لأساليب الإدراك. وهذا يعنى وجود نسبية كاملة لا تسمح بقيام معايير موضوعية للأساليب المتفرقة للفكر.

يقول سابير : «اللغة دليل للواقع الاجتماعى. وبالرغم من أن اللغة لا يُعتقد أنها ذات أهمية ضرورية لدراسة العلوم الاجتماعية فإنها هى التى تحدد كل تفكير فى المشكلات الاجتماعية ؛ فالناس لا يعيشون فى العالم الموضوعى وحده : أى فى عالم الأفعال الاجتماعية كما يقال عادة، ولكنهم يقعون تحت رحمة اللغة المفروضة عليهم التى تستخدم كوسيلة

للتعبير فى مجتمعهم . ومن الوهم أن نظن أن أىَّ أحد قادر على التكيف من الواقع دون استخدام اللغة ، وأن اللغة مجرد وسيلة عابرة لحل المشكلات الخاصة بالاتصال بين البشر فى المجتمعات أو التعامل ؛ ففى الواقع يعتمد العالم فى أسسه على العادات اللغوية للجماعة . ولا وجود للغتين متشابهتين بحيث يقال : إنهما تمثلان الواقع الاجتماعى نفسه . إن العوالم التى تحيا فيها المجتمعات المختلفة عوالم متمايزة ، وهى ليست العالم نفسه بعد إلصاق عناوين مختلفة على أجزائه » .

أما العالم هورف فيقول : « الخلفية اللغوية لأى لغة ليست مجرد أداة لترديد الأفكار ، فهى بالأحرى تقوم بتشكيل الأفكار التى توجه تصوراتنا الذهنية ، وتساعدنا على تحليل انطباعاتنا . . . إننا نشرح الطبيعة ونحللها وفقاً لخطوط وضعتها لنا لغتنا القومية ، ونحن لا نهتدى إلى المقولات والأنماط التى ننتزعها من عالم الظواهر ؛ لأنها أمام أعيننا تحملق فى وجوهنا ، وعلى العكس فإن العالم يبدو لنا فى شكل موجات سريعة التغير من الانطباعات أو التأثيرات التى يتحتم قيام عقولنا بتنظيمها ، ويعنى هذا إلى حد كبير الرجوع إلى المقولات التى غرستها اللغة فى عقولنا » .

ويقول هورف أيضاً : « لا أحد يستطيع أن يصف الطبيعة بحرية ودون انحياز ؛ فهو مرغم على اتباع تأويل معين لها حتى لو اعتقد أنه حر فى تصوراته . . وهكذا فإننا ننساق إلى مبدأ جديد للنسبية يرى أن كل المشاهدين لا يتبعون الفكرة نفسها عن العالم إلا إذا اعتمدوا على خلفية

لغوية متماثلة » . ويقول هورف كذلك : « أنماط اللغة لمو معايير المجتمع إنهما قد نموا معاً وتبادلا التأثير ، ولكن فى هذه الشركة تحكمت طبيعة اللغة – باستبداد – فى طريقة تشكيل الأفكار » .

وهكذا أدرك صاحبا النظريتين أن المجتمعات المختلفة تدرك الأشياء إدراكاً مختلفاً نتيجة لاستعمالها لغات مختلفة . وهناك مجتمعات لا تملك ألفاظاً دالة على معنى الإلكترون أو ربما الزمان والمكان والمادة والعلة ، وينعكس ذلك على كل قيمها الأخلاقية والجمالية وغير ذلك .

ومن الأمثلة التى تبين اختلاف وجهات نظر « سابير » و « هورف » عن النظرة السائدة ما ذكر عن العلاقة بين تمييز الألوان والمصطلحات اللغوية المستعملة فى بعض المجتمعات التى تختلف من مجتمع لآخر ، وإن كان هذا لا يدعو إلى الدهشة ، ويقال : إن الإنسان قادر على تمييز ما يقرب من سبعة ملايين لون من ألوان الطيف الشمسى ، ومع هذا فليس فى المجتمعات أكثر من حفنة من الكلمات الدالة على اللون فى الاستعمال العادى . وهذا يعنى أن كل مصطلح من المصطلحات الدالة على الألوان فى اللغة العادية يدل على مجموعة كبيرة من ألوان الطيف الشمسى . وفى هذه المجموعة الكثير من الألوان التى يمكن تمييزها . ولا يصح الزعم بأن كل المجتمعات تقسم الطيف الشمسى على نحو واحد .

ومن هنا تختلف مجموعات الألوان باختلاف الأقسام التى يقسمون الطيف إليها : ومن أمثلة ذلك كلمة Glas بلغة ويلز بإنجلترا فهى تدل على

اللون الأزرق عند بعض المجتمعات ، وعلى اللون الرمادى عند مجتمعات أخرى ، أما كلمة Iluyd فتدل على اللون البنى فى كثير من المجتمعات . وعلى هذا فليست هناك مطابقة بين التسميات الإنجليزية ، وتسميات لغة ويلز لأقسام الطيف الشمسى .

وأحياناً تكون كلمة واحدة فى لغة ويلز للدلالة على أحد الألوان على حين تستعمل الإنجليزية أكثر من كلمة مثل Greyish Blue (أزرق ميال للرمادى) أو ميال للبنى بمسحة من الأخضر . فالتصورات الإدراكية تختلف من مجتمع لآخر . وقد أجريت تجربة لإثبات ذلك : إذ عرضت لوحة عليها مجموعة من الألوان على بعض الناطقين بالإنجليزية ، ثم عرضت عليهم بعد دقائق قليلة لوحة عليها جملة بقع من الألوان ، ثم طلب منهم التعرف على اللون الذى سبق عرضه عليهم . وعرضت التجربة نفسها على بعض قبائل الزولو ، فاتضح أن الإنجليز كانوا أقدر على تمييز بعض الألوان من الزولو ، والعكس بالعكس . والسؤال هو : هل هناك علاقة بين اختلاف مصطلحات الألوان ، واختلاف قدرات التمييز : لو صح ذلك لكان معناه صحة فرض سابير وهورف .

ولقد سبق أن أثبت علماء النفس أن الناس أقدر على تمييز الألوان عندما تتوافر كلمة واحدة دالة على اللون كاللون الأحمر مثلا ، وبذلك تكون اللغة ذات تأثير على الإدراك الحسى ، وتكون الذاكرة أو القدرة على التحقق مرتبطة بوجود كلمة واحدة أو قلة من الكلمات للدلالة على

الشىء ، وهذا يعنى أنه كلما قلت الكلمات المستعملة فى وصف ماندركه كنا أفضل حالا فى التذكر ؛ كما يتبين من التجربة الآتية التى أجراها أحد العلماء : فقد عرض على مجموعتين من الأفراد عصا ملونة سماها للمجموعة الأولى « داء » ، وسماها للمجموعة الأخرى « دانايا ناجا » ، فاكتشف أن المجموعة الأولى كانت أقدر على تمييز العصا بين باقى العصىِّ .

ومن المعروف أيضاً أن الناس أقدر على التعرف على الأشكال المشابهة للأشكال التى يمكن تشبيهها بأشياء بسيطة معروفة فى اللغة ، وعلى هذا فإن تمييزنا للشكل أسهل من تمييزنا للشكل لأننا قد نسمى هذا الشكل الأول « نضارة » أو سلسلة . . . إلخ . وربما قيل : إن هذه النظرية تقبل تفسيرات أخرى : أى قد يقال . . إن الزولو أقدر على تمييز بعض الألوان لأنهم يصادفونها فى بيئاتهم الطبيعية ، وبذلك لا يكون للغة أى دخل فى براعة التمييز بين الألوان .

وننتقل إلى مثل آخر يبين الاختلاف فى الرأى بين نظرية سابير وهورف والنظريات الشائعة : فأسماء القرابة تختلف من مجتمع لآخر . ومن الأمثلة الطريفة أنهم فى أستراليا يطلقون كلمة واحدة هى Wuniji للدلالة على أربعة أقارب مختلفين : شقيق الحم ، وزوج الأخت وزوج البنت ، وابن ابن الأخت . وفى المجر هناك كلمات مختلفة للدلالة على الأخ الأكبر والأخ الأصغر والأخت الكبرى والأخت الصغرى . وثمة

اختلاف بين المجتمعات فى النظر إلى القرابة : ففى بعضها ينظرون إلى المسنين باحترام يفوق احترام الأب الأصلى . وفى مجتمعات أخرى لا يحق للحفدة مخاطبة الجدات مباشرة فلا بد من الاتصال بوسيطة لهذه المهمة !

ومن الغريب أن بعض المجتمعات لا تعترف بأن القرابة مرتبطة بصلة الدم . ففى بعض الأرياف يطلقون كلمة « العم » على كل من ينتمى إلى البلدة ، أى أن الصلات الاجتماعية أهم من صلات الدم . ولدينا أمثلة كثيرة عند العالم الفرنسى كلود ليفى ستراوس الذى يرى أن المعاملات بين الناس فى المجتمعات أو بين المجتمعات المختلفة يمكن أن تتم على جملة وجوه : مثل تبادل السلع أو تبادل الأفراد عن طريق الزواج . وكما أن هناك قواعد تسيطر على تبادل السلع - كذلك هناك قواعد تتحكم فى تبادل الأشخاص ؛ ومن هنا جاءت الألفاظ الدالة على درجة القرابة التى تختلف من مجتمع لآخر .

ووفقاً لهذه النظرة فإن ما يعطى بعض الأفراد الحق فى الحصول على لقب من ألقاب القرابة هو أن تكون زوجاتهم غير قابلات للتبادل مع أى مجتمع آخر . وعلى هذا يكون الاقتصاد والصلات الاجتماعية هما المتحكمان فى علاقات القرابة ، لا علاقات الدم . وفى المجتمعات التى تؤمن بالأديان السماوية فإن جميع صلات القرابة فيها تعتمد على صلات الدم ، أما فى المجتمعات البدائية فإن هذه الصلات مرتبطة بالصلات

الاجتماعية أو الاقتصادية ، ولكن هل تجيز لنا كل هذه المبررات الموافقة على القول بأن اللغة هى التى تتحكم فى صلات القرابة ؟

هنا يجب أن نحذر سوء ترجمة بعض اللغات الأجنبية : فمثلا بعض اللغات لا تعرف كلمة العم أو الخال ، ولكنها تطلق على أهل الزوجة جميعاً كلمة قبيحة المعنى « نافاهو » وتعنى « أولئك الذين نحمل همومهم » . وهذا يعنى أن الكلمة لا تدل على صلة الرحم ، ولكنها تدل على العبء الاجتماعى . ونحن إذا اتبعنا هذه الترجمة الحرفية نفسها فى ترجمة مصطلحاتها فستجىء بنتائج غريبة أيضاً : فمثلاً كلمة Grand Father التى تطلق فى اللغة الإنجليزية على الجد ترجمتها الحرفية هى الأب الرفيع العماد ، وترجمة God Father الحرفية هى الأب المقدس أو الأب الروحى أو الأب الإلهى . وهذا يعنى أن الترجمة الحرفية لا تعنى غالباً المعنى المقصود ، ومن ثم فمن الخطأ أن نستنتج من معنى كلمة « نافاهو » أن مثل هذه المجتمعات تنظر إلى أهل الزوجة نظرة اشمئناط .

وفى الترجمة يجب أن ننتبه أيضاً إلى أن بعض الكلمات لها معنى أصلى ومعنى ثانوى : فمثلا كلمة Uncle تطلق فى إنجلترا وأمريكا على أخوات الأب أو الأم ، وكذلك على الأصدقاء الأوفياء ، وعلى جميع كبار السن من المعارف ، ولا يستبعد أن يجىء أحد العلماء عندما يكتشف هذه الظاهرة بتخمينات عارية من الصحة إذا لم يراع وجود معنى أصيل وآخر ثانوى .

ومن الأمثلة الأخرى أن فى أستراليا قبيلة تطلق على الزوجة اسماً يدل

على البلدة التى جاءت منها ، وأحياناً يكون هناك معنى أصلى وآخر مجازى . وبذلك ننتهى إلى القول بأن دراسة مسميات القرابة عند كل من سابير وهورف لا تؤيد مزاعمهما .

وننتقل إلى مسألة أخرى هى : هل تختلف طريقة التفكير والتصور من مجتمع لآخر ؟ وهل يرتبط هذا الاختلاف بالاختلاف فى اللغة ؟ فمثلا الأوربيون الذين مازالوا يعيشون على الفطرة ليس لديهم مصطلح دال على الإلكترون ، وكذلك يقال : إن بعض المجتمعات لا تعرف تصورات أساسية مثل الزمان والمكان والجوهر والعلية ! ويقال مثلاً : إن بعض القبائل لا تعتقد السكون ؛ ولذا انتشرت فى لغتها الأفعال وظروف المكان والزمان الدالة على الحركة . ويعزو العالم « هورف » افتقار قبيلة « الهوبى » البدائية إلى تصور للزمان مشابه لتصورنا له إلى عدم وجود أفعال دالة على الزمان وعدم وجود أسماء دالة على أبعاد الزمان مثل اليوم أو الشهر ، ويقال : أيضاً : إن الهوبى لا تعرف تصور المكان لعدم وجود كلمات فى لغتها تدل على المسافات ، وكذلك لا تعرف معنى السرعة ؛ لأنها تفتقر إلى ألفاظ دالة عليها . ويقال أيضاً : إن بعض المجتمعات لا تعرف أن العقل صفة للكائنات العليا بما فى ذلك الإنسان ، بل هى تتصور أن للعالم عقلاً واحداً لعدم وجود ألفاظ تميز الكائنات العليا من باقى الكلمات .

إننا نعزو مثل هذه الظواهر إلى خطأ الترجمة أيضاً ، وهذا نجده

لاعند ترجمة لغات الشعوب البدائية والشعوب الراقية فحسب ، ولكننا نجده بين الفرنسيين والإنجليز والألمان ، وبيننا نحن العرب . فكم صادفنا فى الترجمة كلمة مثل Old ، فظننا أنها تعنى العجوز فقط ، ونسينا أنها تعنى فى الإنجليزية « الرجل الطيب » كذلك .

وعلى هذا بوسعنا أن نعيد كتابة نظرية سابير وهورف على وجه آخر كأن نقول : إن طريقة التصور مرتبطة بالقدرة على تطويع ألفاظ اللغة . بيد أن هذا لا يعنى أن نتخيل وجود فكرة واحدة عن الزمان فى أى مجتمع : فقلائل فى مجتمعنا المتحضر يتصورون الزمان على طريقة العالم المشهور أينشتين أو هيزنبرج على حين أن أوساط الناس لهم فكرة مختلفة عن هذه الظواهر الطبيعية ، وهم غالباً يعبرون عن أفكارهم بلغات مختلفة : فبعضهم يلجأ إلى التشبيه والقياس ولغة المجاز : فمثلا كثيراً ما نستعمل تشبيهات المكان عند الكلام عن الزمان باعتبار المكان شيئاً محسوساً أكثر من الزمان فيقال : « بعد زمنى » أو « مسافة زمنية » وقد يلجأ بعض إلى استعمال لغة مجازية وكافية يعبر بها عن انعكاس الزمان فى المشاعر ؛ وعلى هذا فهناك اختلاف فى استعمال اللغة يتفاوت بين الاقتراب من الموضوعية والكلية . وبين الإسراف فى النظرة الذاتية أو الشخصية . وغالباً ما ينظر البدائيون إلى « الزمان » كشىء شخصى أو خصوصى يختلف من شخص لآخر .

ولكن العالم « هورف » لا يقبل هذا التحليل فهو يجزم بعدم وجود

فكرة أو حدس للماضى عند قبائل « الهوبى » : أى أنهم لا يتصورون الزمان كتيار مستمر يبدأ من الماضى ويمر بالحاضر متجهاً إلى المستقبل . ومن جهة أخرى فإن للهوبى تصورات نستطيع أن نربطها « بالزمان » وإن كانت مختلفة عن الكلمات الدالة على الزمان التى فى أكثر اللغات مثل « الآن » و « منذ » و « متى » ، إلخ . فهم عندما يتكلمون عن المستقبل يستعملون كلمة نستطيع أن نترجمها إلى « ما نأمل حدوثه » وبذلك يكون معنى المستقبل الحالة التى نأملها ويكون معنى الماضى « مالا يمكن الأمل فيه » .

ويرى « هورف » أن الكلمة التى نستطيع مع شىء كثير من التعسف أن نعتبرها مرادفة للمستقبل تعنى كل ما يمر بالذهن من خواطر وآمال وأهواء : أى كل ما يجرى داخل الذهن أو القلب كما يتصور « الهوبى » ونحن نرى أن مثل هذه التفسيرات لاتدل على اختفاء معنى المستقبل عندهم ، ولكنها تدل على وجوده مختلطاً بمعانى الأمل الذى قد نجده فى لغتنا أحياناً مرتبطاً بالمستقبل أبداً ، وإن كنا لا نعتبر كلمة « مستقبل » مرتبطة بالأمل فقط ؛ لأننا نتصور وجوداً خارجياً لها ، ونتصور وجود أبعاد زمنية بين الحاضر والمستقبل نستطيع قياسها على طريقة قياس أبعاد المكان ؛ ومن هنا نلجأ إلى تشبيه الزمان بتشبيهات مكانية كأن يقال فى اللغة الإنجليزية : إنها Rivers من الزمان أو امتدادات Extensions أما عند قبائل الهوبى فترتبط الكلمة بالمشاعر والأهواء والميول الكامنة داخل العقل فحسب .

كذلك لاتتصور قبائل الهوبى المكان بطريقتنا ، لأنها تتصور المكان تصوراً جامعاً : أى يجمع بين فكرتى الزمان والمكان معاً . فمن ينتمى إلى قبائل الهوبى لا يتصور أن أبعاد المكان مسافات هندسية تقاس على الخرائط ، ولكنه يتصوره فى صورة الإجراءات المعقدة الكثيرة التى يلزم القيام بها عند الانتقال من مدينة لأخرى مثلا . وهذه الإجراءات تحتوى بطبيعة الحال على عنصر مكانى ، وعنصر زمانى ، وإن كانت مختلطة عندهم بالصعوبات والمشاق والأهوال التى يصادفها المسافر من جهة لأخرى . فالفكرة إذن ليست مختفية ولكنها « موجودة » فى موضع آخر ، وعلينا عند المقارنة بين اللغات المتحضرة ، ولغات مثل هذه القبائل أن نراعى أن الكلمات الصريحة عندنا تتخذ أحياناً صورة المجاز فى هذه اللغات . ولكن هذه المشكلة ليست وقفاً عليهم ، فنحن نصادفها فى لغتنا عندما نقرأ الأدب : أى أسمى صور اللغة ؛ فغالباً ما يختلف القراء فى تفسير بعض المجازات التى يستخدمها كبار الكتاب أو يفهمونها فهماً ناقصاً أو بعيداً عما قصده القائل :

ومن الأمثلة الدالة على ذلك أننا عندما نقول : إن العالم قد أصبح أصغر مما كان بعد اختراع الطائرة – فإننا لا نعنى أن العالم قد انكمش ، ولكننا نعنى أن صعوبات الانتقال قد خفت . وعندما نقول : إن الآباء ينتمون إلى عصر مختلف عن عصر أبنائهم – فلا يعنى هذا أن الحَمْل قد أصبح يستغرق قروناً من الزمان .

وعلى هذا يصعب القول بوجود علاقة آلية بين طريقة التفكير وطريقة التعبير ، لأن معنى هذا هو اختفاء الحرية الإنسانية ، والتفاوت المعترف به بين أبناء البشر ؛ وبذلك فإننا لانقبل النتائج التى اهتدى إليها العالمان « سابير » و « هورف » : أى اعتقادهما أن اللغة هى التى تقرر طريقة التفكير ، واعتقادهما الآخر باستحالة فهم أى مجتمع للمجتمع الآخر ، أو أنه لا وجود لأحد قادر على التحدث عن العالم بلا تحيز أو تعصب تفرضه عليه لغته التى أجبر على تعلمها ونطقها ، وإلا فكيف فهم هذان العالمان مقاصد قبائل الهوبى ؟ .

ويرجع كل سوء فهم إلى عدم بذل الجهد الكافى للفهم ، ومن المغالاة الاعتقاد بأن اللغة تتحكم فى تفكيرنا : أى أننا عاجزون عن التفكير إلا من خلال كلمات فرضتها علينا لغتنا . وإلا فما سر تنوع تصورات المفكرين للعالم برغم استخدامهم لغة واحدة وربما اهتدى بعضنا إلى تصور العالم على نحو مشابه لتصور « الهوبى » دون استخدام لغتهم . وربما ساعد التفاعل بين اللغات على تقريب كل منها للأخرى وتسهيل عملية التفاهم ونقل الأفكار؟ وهناك صعوبات فى التعبير فى بعض اللغات قابلة للتذليل بلا مراء ، وهناك صراع محتوم بين اللغات ، وعلى صفوة المفكرين التغلب على كل عجز فى التعبير فى لغتهم ، ولنذكر فى الفصل التالى بعض أمثلة لكيفية حدوث التفاعل بين اللغات بعد أن استبعدنا نظريتى سابير وهورف اللتين ربما أدتا إلى العزلة اللغوية .

٤ - التفاعل بين اللغة ومقومات المجتمع

(٢)

اللغات في حالة احتكاك وتفاعل وصراع وتنازع على البقاء ، وأهم العوامل التى تساعد على التفاعل بينها : التجاور والحروب والتجارة والهجرة ، وما يترتب على هذا التفاعل إما تغلب لغة على أخرى بسبب الكثرة العددية لأحد المعسكرين ، أو لأن الغالب أرقى حضارة من المغلوب . وإذا حدث تفاعل بين لغتين فإنه إما أن يسفر عن القضاء على لغة المعسكر الأضعف ، أو ينتهى إلى حل وسط تنبعث منه لغة بين بين تجمع بين ألفاظ من اللغتين ، ولا يلزم حينئذ أن يكون البقاء للأصلح أو الأكثر تحضراً .

وعادة لا تنقل الألفاظ من لغة إلى أخرى كما هى ، ولكنها تحرف وتبتعد كثيراً عن صوتياتها ومدلولها وطريقة نطقها . كما يحدث تأثير آخر فى تنظيم ألفاظ الجمل ومخارج الحروف ، أو قد يقتصر التأثير على نقل الكلمات دون مساس بتركيب الجمل أو بقواعد النحو المنظمة للصلة بين الكلمات . وفى أحيان أخرى ، تعجز لغة الجماعة المنتصرة على قهر لغة أخرى ، كما حدث مثلاً عندما غزا العرب بلاد فارس أو عندما احتل

الإنجليز مصر ، فاقتصر التأثير على نقل بعض الكلمات الشائعة عند الدولة التى هى أقوي ، كما استفاد المعسكر بنقل كلمات غير موجودة فى لغته .

ولعل العرب كانوا مثلاً رائعاً للسماحة وحسن التأثر بالبلاد التى قاموا بفتحها . فبرغم اعتزازهم بلغتهم واعتقادهم أنها أفصح اللغات وأسهلها على اللسان فى النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما فى النفس . . فإنهم استفادوا بالأسماء التى لم يكن لهم بها أى علم ، فنقلوا أسماء نباتات مصر وحيواناتها وملابسها ، ونقلوا أيضاً عن العراق والشام الكثير من الأسماء مثل بط وبرذون وفيل وجاموس وفلفل وكمثرى وخوخ وجوز ولوز ونرجس وورد وياسمين وقرفة ومسك وعنبر وصندل وقميص وسروال وكرباس وديباج وأبريسم وخز وفالوذج وسميذ وسكر ورصاص وزئبق وجص وزمرد وياقوت وفيروز ومنجنيق وبركار وقانون وبربط وقمقم وطشت وطبق وكوز وفنجان ولجان ، بل لقد نقلوا عن الحبشية أيضاً كلمة مثل منبر وأصلها ومبر بمعنى كرسى أو مجلس وكلمة « نفاق » من نفقاء الحبشية وتعنى البدع فى الدين . هذه الأمثلة قليلة تبين قدرة اللغة الراسخة على هضم الكلمات الأجنبية دون مساس بجوهرها أو بنيانها .

والاستعمار والهجرة مؤثران هامان على التفاعل بين اللغات ، وبخاصة عندما يكون هناك تفاوت كبير بين درجة تحضر المستعمر أو المهاجر ، ودرجة تحضر البلاد المستعمرة ، فى هذه الحالات كثيراً ما يحتفظ الوطنيون بلغتهم ويتحدثون بلغة المستعمر أيضاً ، أى تكون لهم لغة

للحديث العادى هى لغتهم الأصلية أو الوطنية ، ولغة أخرى للعلم المستوزد أو للتحدث بها مع المستعمر . وغالباً ما تنقرض اللغة الأصلية بمرور السنين عندما تقطع الشعوب المستعمرة شوطاً كبيراً فى الحضارة وتكتشف أن ألفاظ لغتها الوطنية لا تكفى حياة التحضر التى تتطلع إليها .

وعندما يكون النازحون من أبناء بلد متقدم وبلدُ الهجرة بلدٌ ذو لغة عريقة يحرص أهلها على الحفاظ عليها — لا يحدث التأثير إلا إذا اختلط المهاجرون وطبقات الشعب . وغالباً لا يحدث مساس بالخصائص الأساسية للغة من نحو وصرف إلخ ، ولكنه يقتصر على نقل ألفاظ الحضارة بعد تطويعها حتى تنسجم مع اللغة الوطنية . ومن أمثلة هذه الحالة ما حدث لنا فى مصر . إذ نزحت إلينا جاليات أجنبية كثيرة وتأثرت لغتنا الدارجة باللغة الإيطالية بوجه خاص ، لأن أصحاب اللغتين الإنجليزية والفرنسية لم يختلطوا بالشعب اختلاطاً مباشراً ، ولذا نقلت لغتنا الدارجة الكثير من الكلمات الإيطالية وبخاصة فى الحرف التى اشترك فى ممارستها الإيطاليون والمصريون كفن العمارة ، وهندسة الكهرباء والسيارات . وأمثلة ذلك كثيرة ككلمة « صالة وبلكونة » و « ماكينة » و « دينامو » . . إلخ ، وبعض الكلمات الإيطالية الشائعة مثل « ستابينا » و « أليستا » بل فى اللحوم وفى الحيوانات المائية « ككابوريا » و « فيليتو » و « تلبيانكو » وجنبرى (من جانبارو) ، وفى القضاء مثل بروتستو وأفوكاتو .

ومن الغريب أن اليونانيين اختلطوا بأبناء شعبنا اختلاطاً مماثلاً ، ولكنهم لم يتركوا نفس الأثر ، ولعل هذا يرجع إلى تجارب المصريين مع صوتيات اللغة الإيطالية . وتأثرنا بالفرنسيين أكثر من تأثرنا بالإنجليز . وربما نسبنا ذلك إلى التقارب بين صوتيات اللغتين الفرنسية والعربية ، فنحن نستسيغ نطق «تلفيزيون» وفقاً للنطق الفرنسى أكثر من استساغتنا نطقها على الطريقة الإنجليزية . وساعدت مدارس اللغات على نشر الكثير من مصطلحات الفرنسيين ، وخاصة فى عالم الأزياء النسائية وأدوات التجميل ، ولذا لا يختلف إلمام أية سيدة مثقفة فى مصر بالأسماء الفرنسية لِلأقمشة و «الأكسسوار» و «الكوزماتيك» وإلمامُ أية سيدة أنيقة فى فرنسا .

وحاليًّا ازداد التقارب بين اللغتين ، ولم يعد مقصوراً على تأثير تجاوز البلاد كما كانت الحال فى الماضى ؛ فوسائل الإعلام المختلفة من سينما وتلفيزيون وراديو قد قضت على الفواصل القديمة ، وأزالت غرابة الألفاظ المستوردة ، فأصبحنا ننقل كلمات من أمريكا اللاتينية التى تبعد عن بلادنا أكثر من عشرة آلاف كيلومتر أو ننطقها بنفس الطريقة التى تنطق بها فى بلادها الأصلية بعد أن سمعناها فى الأغانى الشائعة ، وحفظناها قبل أن نعرف معناها .

ومع كل هذه المؤثرات فإن لغتنا العربية لم تتلاشَ واستوعبت ألفاظاً أجنبية من مختلف الأمم ، علمية وغير علمية . ولن يشك من يستمع إلى درس علمى يحتوى على جملة مصطلحات أجنبية أنه يستمع إلى كلام

عربى سليم. فقد سبق للغة العربية أن تفاعلت جملة مرات مع لغات أخرى – كما أسلفنا – وخرجت من المعمعة أقوى مما كانت ، وهذا هو الاختلاف بين اللغة العريقة المتينة البناء ، واللغة البدائية التى تعجز عن التعبير عن أكثر من الضرورات الأولية البسيطة .

ومهما وصفت اللغة بالعراقة فإنها لا تبقى على حالها ، فهى ككل كائن حى ، تتطور وتنمو ويتسع متنها ، وتتنوع اهتماماتها ، وترغم لغة الكتابة على مسايرتها . واللغات القديمة التى عجزت عن مسايرة ركب الحضارة وخشيت على نقائها فلم تتفاعل هى وغيرها من اللغات – انتهى أمرها إلى التخلف وربما إلى الانقراض . والتأثر واضح فى نقل المفردات ، ونحن لا نستطيع أن نجزم بتاريخ انتقال أى كلمة من لغة لأخرى ، ولكننا نرجح أن فترات الحروب قد ساعدت على تبادل الكلمات ، ولا نستطيع أن نتصور حرباً مثل الحروب الصيلبية قد مرت مرور الكرام دون أن تترك أثراً على المعسكرين المتحاربين ، ولا شك أن علم اللغات المقارن قد اكتشف الكثير من نماذج هذه الكلمات :

فكلمة «سكر» العربية قد نقلت إلى أغلب اللغات الأجنبية ، وكلمة فرس العربية كان لها بغير جدال تأثير ملحوظ على كلمة Pferd الألمانية ، والكلمة الألمانية Erde التى حورت إلى كلمة Earth الإنجليزية بمعنى الأرض . والكلمات المقتبسة تطوع تبعاً لصوتيات اللغة الأصلية .

ومن الكلمات الطريفة التى نقلناها عن اللغة الإنجليزية ، ويجهل الكثيرون

أصلها كلمة « رومان بلى » المشهورة فى الأدوات الميكانيكية وبخاصة فى السيارات . فهى محورة عن كلمة Rollman Baring. وهذه الكلمات المستوردة لا تختلف هى والسلع المستوردة ، فمعظمها يشيع نتيجة لافتقار البلد الأصلى إليه . فلا عجب إذا انتشرت أسماء « ماركات » المشروبات الروحية الأسكتلندية فى البلاد التى لا تعرف صناعة هذه المشروبات ، أو إذا انتقلت كلمة الشاى من لغة ماليزيا المصدرة الأولى لهذه المادة إلى اللغات الأخرى مع تحوير خفيف ، وبقيت على حالتها فى اللغة العربية ، وحورت إلى كلمة Thé فى الفرنسية وإلى Tea فى اللغة الإنجليزية .

والأمر بالمثل فى كلمة «طباق» المنقولة عن لغة الهنود الحمر ، وأصبحت «توباكو» فى الإنجليزية و «تاباك» فى الفرنسية .

فالاختلاف بين حالة البداوة والتحضر ينعكس على الخيال اللغوى كما يتبين من هذا المثل الطريف الذى عرضه الدكتور على وافى للبدوى الذى مدح الأمير فقال :

أنت كالكلب فى حفاظك للعهد وكالتيس فى قراع الخطوب

ولما صقلته حضارة بغداد جادت قريحته بأبيات متوافقة مهذبة قال فيها :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وفى المراحل البدوية تغلب الألفاظ الدالة على معالم الطبيعة ، على حين تتجه فى حالة التحضر إلى التركيز على العلاقات الإنسانية وتتحول الألفاظ من النطق الصعب والأصوات الحوشية إلى العذوبة والرقة .

ويعكس الأسلوب أيضًا نوع الحرفة ، بل تتأثر بها أيضًا أدوات النطق ومخارج الحروف ونبرات الألفاظ والتدرج فى التنغيم والمفردات ذاتها ، فكم هناك من ألفاظ انقرضت بعد الجاهلية ولم تعد تلائم المسلمين المتحضرين .

على أن الحضارة كثيرًا ما تكون مصحوبة بالرخاوة كنطق الصاد سينا فى صراط التى تحولت إلى سراط ، وإغفال الإعراب الصحيح الذى يتقنه سكان البوادى وعدم التفرقة بين المثنى وجمع المذكر وجمع المؤنث وقلب الضاد ظاء أحياناً ودالاً تخينة أحياناً أخرى وانتشار اللحن . وهذه الأمثلة الكثيرة التى ساقها أحمد أمين فى كتابه الخالد ظهر الإسلام تبين أن الحضارة ليست خيراً دائماً على اللغة .

وقد تحدث الحضارة حالة تحذلق فى اللغة وأساليبها ، كما حدث فى فرنسا على عهد لويس الرابع عشر ، أو الملك الشمس : فقد وضعت فى عهده أصول معقدة لطريقة التخاطب ، وتنوعت عبارات الترحيب والمجاملة ، وأصبح هناك رجال متخصصون فى اختراع الألقاب وعبارات التفخيم نعرفهم الآن باسم رجال المراسم أو البروتوكول ، بل تأثر الأدب ذاته بهذا الجو المتكلف ، ويصادفنا هنا الأديب الشاعر « بوالو » الذى وضع قواعد معقدة للدراما وبيّن ما يليق من أنواعها للخاصة وما يناسب الدهماء ! وإذا رجعنا أيضاً إلى عصر النهضة فسنرى كاستليونى ينصح أمراء النهضة باتباع أصول الكلام واختيار الألفاظ المناسبة

لمراتبهم الاجتماعية ، وكل هذا منشور فى كتاب معروف هو « رجل البلاط » .

وبرغم ما عند الرسميين من حذر وتدقيق فى استعمال الألفاظ وتأدب جم ولجوء إلى اللغة اللامباشرة عند التحدث عن المستهجنات فإننا نرى الأدباء الإيطاليين والفرنسيين شديدى التحرر من كل قيد . وإذا رجعنا إلى الإيطالى بوكاتشو أو الفرنسى « رابلييه » فإننا نصادف كثيراً من العبارات المكشوفة وتعابير كثيرة عن العورات وأسماء أعضاء الجسم كلها دون اهتمام باستبعاد العبارات غير اللائقة ، على حين نلاحظ عند الإنجليز بخاصة مبالغة فى الاستحياء تضحكنا أحياناً . هذه المبالغة تحتهم على مراعاة الدقة فى اختيار الألفاظ المنفردة أو غير المستحبة اجتماعيًّا . فهم يسمون السراويل مثلاً أسماء عجيبة مثل **Inexpressibles** (أى اللى مايتسماشى) كما نقول فى العامية .

وأهم اختلاف بين اللغات الفطرية واللغات المتحضرة يظهر فى شيوع الكلمات المجردة عند الأخيرة : فالبدائى يكتفى عادة بالكلمات المشخصة الدالة على أشياء ملموسة أو محسوسة فى بيئته المحيطة به ، أما المتحضر فيستطيع اختراع الكثير من اللغات التى لا يعرفها البدائى . فلديه جملة لغات رياضية تعتمد على رموز لا تصلح للتعبير الشفهى .

هذه خلاصة سريعة لأهم جوانب التفاعل بين اللغة والمجتمع بظواهره وعاداته ، وإن كان الكلام عن هذه الناحية لن يستوفى إلا بعد عرض الفصل التالى عن اللغة بين القومية والدولية .

٥ – اللغة بين القومية والدولية

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية
وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات ؟
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى
ومنكم وإن عز الدواء أساتى
فلا تكلونى للزمان فإننى
أخاف عليكم أن تحين وفاتى

* * *

أرى لرجال الغرب عزًا ومنعة
وكم عز أقوام بعز لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفنناً
فياليتكم تأتون بالكلمات

أيطربكم من جانب الغرب ناعب
ينادى بوأدى فى ربيع حياتى ؟
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق
حياة بتلك الأعظم النخرات
أرى كل يوم فى الجرائد مزلقاً
من القبر يدنينى بغير أناة
وأسمع للكتاب فى مصر ضجة
فأعلم أن الصائحين نعاتى

* * *

أيهجرنى قومى — عفا الله عنهمو
إلى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى
لعاب الأفاعى فى مسيل فرات

* * *

إلى معشر الكتاب والجمع حافل
بسطت رجائى بعد بسط شكاتى
فإما حياة تبعث الميت فى البلى
وتنبت فى تلك الرموس رفاتى
وإما ممات لا قيامة بعده
ممات لعمرى لم يُقَسْ بممات

هذه مختارات من أبيات لحافظ إبراهيم فى قصيدة بعنوان : « اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها » نشرت عام ١٩٠٣ . والقصيدة تنبض بالروح الوطنية التى عرفت عن الشاعر الذى أحس بالكارثة التى تهدد اللغة العربية ، وبخاصة عندما زاد المتفرنجون من خريجى المدارس الأجنبية حينئذ الذين كانوا يتباهون بسوء نطقهم للغة العربية التى كانت مهددة بالفعل بالاستعمار الأجنبى ، لأنها كانت لا تدرس على الإطلاق فى مثل هذه المدارس التى تحتمى بدولها . ولم تتغير هذه الحال إلا بعد ثورة ١٩٥٢ ، عندما أرغمت هذه المدارس على تعديل مناهجها .

وما حدث فى بعض البلدان العربية كان أشنع وأبشع : إذ فقد المثقفون فى هذه البلاد القدرة على التعبير بالعربية ،واختفت تماماً وبقيت أشتات منها مختلطة بلغة بربرية فى أغلب الأحيان تتحدث بها الطبقات المغلوبة على أمرها ، وأغلبها من الأميين .

لقد كتبت هذه القصيدة فى أوائل القرن العشرين بعد قرن من الصراع الاستعمارى الرهيب الذى استخدمت فيه كل الأسلحة ، وفى طليعتها سلاح اللغة التى رآها معظم المفكرين المحور الأساسى لإحداث أى تماسك قومى فى المجتمع . وتفوّق الألمان فى شرح الصلة بين القومية واللغة واعتبرها فلاسفتهم الدعامة الفريدة للقومية وللدولة : فقال الفيلسوف الألمانى فيشته (١٧٦٢ - ١٨١٠) فى «نداء إلى الأمة الألمانية» : «إننا نطلق كلمة الأمية عندما نصادف أناساً تتأثر أجهزة

الكلام عندهم بالمؤثرات نفسها ، أناساً يعيشون معاً . وينمون لغتهم باستمرار الاتصال بينهم » .

وخصص فيشته قسما كبيراً من كتابه لتوضيح العلاقة الوثيقة والمعقدة بين اللغة والسياسة . وقال : الإنسان عندما يتكلم لغة أجنبية فإنه يحيا حياة مصطنعة ؛ لأنه يبتعد عن المنابع الفطرية التلقائية لشخصيته ؛ وتحمس فى عرض هذه القضية حتى قال : إن مجرد وجود مصطلحات أجنبية داخل اللغة يحدث ضررا بالغا ؛ لأنه يلوث ينابيع الأخلاقيات السياسية . . . فعندما تقدم المصطلحات الأجنبية المرتبطة بالحياة السياسية والاجتماعية فى اللغة – لن يكون متحدثوها على يقين من المفهوم الحق لهذه المصطلحات ، وهذا يحدث اضطرابا جسيما لهم قد يكون بالغ الضرر. وضرب « فيشته » مثلا ببعض الكلمات (المقحمة) على اللغة الألمانية من اللاتينية مثل Humanität « النزعة الإنسانية » و Popularit ät الشعبية أو الجماهيرية Liberalität « الليبرالية » ، فما الذى تعنيه « النزعة الإنسانية » إنها تعنى خاصة الاتصاف بأنك إنسان ، وهل فى مثل هذا القول أى شىء يستحق الإشارة ؟ ولكن الرومان بحكم مستواهم الأخلاق الوضيع اعتبروا الاتصاف بالإنسانية مسألة كبيرة تستحق التنويه ، فإذا أدخلنا كلمة Humanität فى الألمانية كان معنى هذا أننا زودنا الشعب الألمانى بقيمة أخلاقية منحطة .

ويقول فيشته : حتى إذا ترجمنا هذه الكلمة إلى لغتنا الألمانية ، أى

قلنا Menschlichkeit بدلاً من Humanität فإننا سنسوق النابهين من الألمان إلى التساؤل : هل يعد وصف أى شخص بإنسان Mensch : أى أنه ليس حيواناً متوحشاً – مسألة ذات بال ؟

وبالنسبة لكلمتى : «الجماهيرية» و «الليبرالية» اللتين يزهو بهما الرومان يرى فيشته أنهما مجرد كلمتين تدلان على انحطاط نظام الحكم فى روما ، وأن كلمة Popularität قد جعل منها الرومان فضيلة خضوعاً للأمر الواقع لشيوع الفساد فى الشعب ونظام الحكم ؛ لأنها لا تختلف هى وكلمة الغوغائية ، أما الألمان فلن يتورطوا فى مثل هذا الخطأ إذا اعتمدوا على لغتهم وحدها ، فلديهم كلمات أفضل مثل : Menschen Freundlichkeit وتعنى التعاطف وروح الود تجاه الإنسان أو Leutseligkeit ، وتعنى التعاطف مع الجماهير و Edelmuth تعنى روح النبل ، ولو فعل الألمان ذلك لصانوا لغتهم من أوصاب اللغة اللاتينية .

فإذا كان مجرد إدخال بعض الكلمات قد أحدث كل هذه البلايا فكيف تكون الحال إذا تحدث الشعب بلغة أجنبية عنه ؟ ويضرب فيشته مثلا لذلك بالفرنسيين الذين كانوا يتحدثون فى الأصل باللغة التيتونية (لغة ألمانيا القديمة) ، ثم ابتعدوا عنها ، وجاءوا بلغة أخرى مشتقة من اللاتينية ، وعندما فعلوا ذلك أصيبوا بكل مصائب الرومان ، وهم يعانون الآن من تصدع العلاقات الاجتماعية والانحلال وعدم الاكتراث ، ولو

أنهم احتفظوا بلغتهم الأصيلة ما سمحوا لأنفسهم بالوقوع فى مثل هذه الرزايا والبلايا .

لقد كان من واجبهم الاحتفاظ بلغتهم «الحية» التى كانت تقيهم أوصاب اللغة اللاتينية . وقال : إن من يتحدثون بلغات منحدرة من اللاتينية لا يملكون لغة حية ، إنهم يتعاملون بلغة ميتة ، وهنا اتبع فيشته التفرقة التى سبقه إليها المؤرخ العالم الشاعر هردر (١٧٤٧ – ١٨٠٣) والتى جعلت اللغات البدائية فى مرتبة أسمى من اللغات المنقولة أو المختلطة ، والألمانية لغة أصيلة . أما الفرنسية والإنجليزية فلغتان منقولتان أو مشتقتان ، وفى هذا النوع الأخير يعبر عن المعانى المجردة بألفاظ غير مجردة ، أى أن اللغة تقدم صورا حسية لما هو فوق الحسى . أما من يتحدثون بلغة حية أصيلة فقادرون على الحرص على وحدة الكلام ، فليس عندهم أى انفصال بين الأفكار المجردة والأفكار الحسية ، ولذا كانت صورهم حية واضحة ، لها تأثير على حياتهم . فلن نعثر فيها على أى شىء لا ينتمى أو ينبع من حياتهم . أما من يتحدثون بلغة منقولة فيشعرون بانفصال كبير بين الأفكار المجردة والتجارب الحسية ، وينعكس هذا على شخصيتهم الهزيلة ، وبذلك يعجزون عن بلوغ الحرية ؛ لأن التراث الذى تستند إليه لغتهم تراث مستعار غريب عن حياتهم .

وبعد كل هذه التحليلات التى تبدو غريبة فى نظر المعسكر الآخر الذى يشعر باعتزاز مماثل بلغته ينتهى فيشته إلى النتائج الآتية :

المجتمعات التى تتحدث لغة أصيلة هى الفريدة الجديرة باسم الأمة .
والمجتمعات يجب أن تتكلم لغة أصيلة حتى لاتشعر بالزيف أو فقدان الشخصية . ولما كانت الألمانية لغة أصيلة فلذا تمتع الألمان بحصانة ضد كل الشرور والمؤثرات المصطنعة ، واستطاعوا أن يحبوا بلادهم حبا حقيقيا . ومن هذا تتضح ضرورة تطهير اللغة الأصيلة من كل شوائب أو مستعارات أجنبية ، فكلما ازداد نقاء اللغة ازداد نقاء المجتمع وإخلاصه . ومن واجب كل مجتمع أن ينمى لغته الأصيلة ، وأن ينفخ فيها نفس الروح الأصيلة التى خلقتها ، لأن هذه اللغة الأصيلة وحدها هى التى تساعد الشعب على إدراك ذاته وبلوغ الحرية . وعبر المفكر الفرنسى البير سوريل عن هذا الأساس القومى للغة بعبارة بليغة على غرار قول ديكارت الشهير فقال : «أنا أتكلم إذن فأنا موجود ! » .

معيار وجود الأمة إذن هو اللغة والجماعة التى تتحدث نفسها باللغة التى تعرف باسم الأمة . وكل أمة يجب أن تنشئ دولة . فإذا وجدت شعوب متفرقة تتحدث باللغة نفسها فمن واجبها أن تتحد ؛ وعلى هذا فإن انفصال البروسيين عن باقى الشعوب الألمانية انفصال مصطنع .

وعندما نشر فيشته نداءه كانت الشعوب المتحدثة بالألمانية تتبع تنظيمات سياسية مختلفة ، ولم يعتقد أحد حينئذ أن وجود عناصر مختلفة من بروسية وبافارية وبوهيمية وسياسية تتحدث باللغة الألمانية أمر هام من الناحية السياسية ، ولكن الحركة القومية استطاعت إقناع الجميع بأن

التحدث بلغة واحدة أساس هام لخلق الدولة الواحدة . وبدأت المناوشات السياسية عندما ظهر أمثال الشاعر الألمانى أرنست Arndt (١٧٦٩ - ١٨٦٠) الذى قال : حينما يترنم باللغة الألمانية ترديداً لصوت الله فى السماء فعليكم أيها الجرمان الباسلون أن تنهضوا وتقتلعوا كل الخرافات التى جاءكم بها الغرباء ، يومئذ سترون كل الفرنسيين أعداء والجرمان أصدقاء !

وعلى هذا لم يعد المتحمسون يعترفون بحدود الدول السياسية ، ورأوا أن الحدود الحقيقية يجب أن تقام على أساس اللغة ، فالشرط الأول للدولة إنما هو وجود أفراد يتحدثون باللغة نفسها ويشعرون بالمشاعر نفسها ولهم تراث لغوى وحضارى واحد ، وكل ما يفرق بينهم يعد أمرا دخيلا تجب إزالته على الفور. والأمة النقية هى التى حافظت على لغتها الأصيلة وعليها أن تصبح مغناطيسيا يجتذب كل من يتحدثون اللغة نفسها الذين يجب أن يتمردوا على الحكومات التى يحيون فى ظلها .

وسرعان ما ارتبط التعلق باللغة وفكرة العنصرية ، فرأينا جوبينو المفكر الأرستقراطى الفرنسى (١٨١٦ - ١٨٨٢) يقول : إن لكل عنصر أو جنس لغة طبيعية تخصه ، واختلاط العناصر كارثة تهدد نقاء العنصر الآرى . وكل العوامل المشهورة فى خلق الدولة مثل الحضارة والدين والعنصر تستند على عنصر أساسى هو اللغة .

ونحن لا نؤيد مثل هذا التطرف الذى قد يغتفر للألمان باعتبارهم

ينشدون الوحدة ، وعانوا كثيرًا من سوء الحظ بسبب جهادهم من أجلها .
ولا شك أن الدول الكبرى قد اعترضت سبيلهم وحاربتهم بدهاء كبير ما زال ينغص الألمان ، وعلى الرغم من أننا نتكلم لغة أصيلة هى اللغة العربية – وبذلك يكون ما قاله فيشته متجاوبا معنا – فإننا نرفض كل تزمت باسم « النقاء اللغوى » وكل محاولة لاستبعاد الألفاظ الأجنبية من لغتنا . لأنه يهدد لغتنا بالهزال ويهددنا اجتماعيا بالانغلاق ، ويصعب كل تقارب عالمى . وانتقاد فيشته للإمبراطورية الرومانية ليس سليماً ؛ فقد استطاعت أن تحقق التعايش السلمى بين لغات مختلفة ، ولم يُحدث تعدد هذه اللغات أى خلل فى وحدة الإمبراطورية . وجاء فى أعقابها الإسلام الذى اهتم بنشر الدين أكثر من اهتمامه بنشر اللغة العربية ، واعتنق الإسلام كثير من الدول التى حرصت على إبقاء لغتها كالفرس ثم الهنود والترك وغيرهم من شعوب أوربا . ولم يؤثر تعدد اللغات أيضا فى تجانس الأمة العربية بغض النظر عن حركات الخوارج والشعوبية التى لا يصح الاعتداد بها .

ولكن الظاهر أن عامل الوحدة الدينية قد استطاع أن يتغلب على معوقات تعدد اللغات . غير أنه إذا لم يوجد عامل الوحدة الدينية فإن العاقبة لا تكون محمودة كما هى الحال فى الهند مثلا التى تعانى الأمرين من تعدد أديانها وقومياتها ، والأمر بالمثل فى بورما التى يتكلم ثلثاها اللغة البورمية والثلث الآخر يتحدث بحوالى مائة لغة ، والفليبين أيضًا تتحدث

بحوالى ٨٧ لغة ، وإن كانت كل هذه اللغات مشتقات من لغة واحدة . وفى المكسيك يتحدث ١٥ ٪ من السكان بلغة من لغات الهنود الحمر الكثيرة . أما الباقون فحائرون بين اللغات المنقولة ، أو المختلطة والحالة أسوأ فى أفريقيا ، ونكتفى بمثل واحد هو نيجريا حيث يتكلم الناس ست لغات رئيسية هى الهاوسا واليوروبا والآبو والكانورى والأبيك والأبيبو . ويتحدث بهذه اللغات ٨٠ ٪ من السكان ، أما الفلول الباقية فتتحدث أربعين لغة تقريباً .

ولا عجب إذا اضطرت بعض الدول إلى الاستعاضة عن لهجتها الوطنية بلغة المستعمر ظنا منها أن هذا يحقق الوحدة القومية ، ولما حاولت تحقيق هذه الوحدة بهذه الطريقة فقدتها . وقد أخطأت فرنسا عندما شجعت بعض الشعوب العربية على نسيان لغتها الأصيلة ، ودفعتهم إلى إيثار الفرنسية عليها ، وربما كان التعلق باللغة العربية سببا من أسباب التمرد على الفرنسيين الذى انتهى باستقلال هذه الدول ورجوعها إلى العربية .

ومن الطريف أن الولايات المتحدة قد ظهر فيها تيار هام يدعو إلى خلق لغة قومية ، وعبر عن هذا الرأى نوح ويستر صاحب القواميس المعروف فقال : « إننا كأمة مستقلة نتطلب خلق نظام خاص بنا فى اللغة والحكومة على السواء . ومع اعترافنا بأن بريطانيا هى أمنا وأننا نتكلم لغتها فإن علينا ألا نجعلها نموذجا لنا ؛ لأن ذوق كتابها قد تدهور بالفعل ،

ولغتها فى الانحدار» . وهذا يبين لنا كيف يرتبط الشعور بالشخصية القومية وضرورة التحرر من لغة المحتل حتى لو كانت من اللغات الراقية التى تملك تراثاً هائلاً كاللغتين الفرنسية والإنجليزية .

وفى بعض أحوال لم تهتم الدول المستعمرة بتعليم أبناء المستعمرات لغتها ، بل نظرت إليهم نظرة تعالٍ كبرابرة يحيون حياة ساذجة ، وحاول الوطنيون تقليد لغات المستعمرين ، وبذلك ظهرت لغات أوربية مبسطة شاعت على نطاق واسع ، ونقل فيها الكثير من عبارات الأحاديث العادية وبقيت إلى جانبها بعض الكلمات الوطنية حلت هذه اللغات أحيانا محل اللغات الوطنية ، وقامت أحياناً بدور الوسيط بين اللغة الوطنية ولغة المستعمرين . واعترف بها علماء اللغة وسموها «كوبول» .

وقد يظن أبناء الدول المتحضرة أن اللغات «الكوبول» وقف على المجتمعات المتخلفة ، ولكن الظاهر أن العدوى قد وصلت إليهم أيضاً نتيجة للتقارب والتفاعل المستمرين بين اللغات المتحضرة . فلم يعد هناك نقاء لغوى : فاللغات سريعة التحول والتغير ، وغالباً ما تعترف بالأمر الواقع وترضى بالكثير من الشوائب التى كان من المفروض أن تتعرض للكثير من الترشيح والتنقية قبل قبولها بين مفردات اللغة الأصلية . وعلى هذا أصبحت اللغات المتقدمة أمام أحد أمرين : إما أن تقبل الأمر الواقع وتعترف بالفوضى السائدة فى التبادل اللغوى ، أو تنادى بوضع لغة جديدة فوق كل اللغات القومية تساير العصر بعد أن توطدت الصلات

الدولية ، ولم تعد العزلة السياسية مقبولة على الإطلاق . والفكرة الأخيرة لها أنصار كثيرون ، ولعل أسطورة برج بابل من أقدم الأساطير الدالة على الرغبة فى خلق هذه اللغة الدولية .

ولدينا مثل آخر عند هنود أمريكا الذين وضعوا لغة للتفاهم بين القبائل معتمدة على الإشارات اليدوية دون مبالاة الصوتيات . ويقال : إن قبائل الكرو Crow والكيو Kiowa والأراباهو Arapaho والشينى Cheyenne والبلاكفوت Blackfot من أمهر القبائل فى استخدام مثل هذه الوسيلة الغريبة فى التخاطب .

وعند الصينيين وسيلة مماثلة لا تعتمد على الصوتيات ، ولديهم لغة للكتابة تصلح للتفاهم بين الأطراف المتعددة اللغات ، وقد أشار إلى هذه الناحية ديكارت فى القرن السابع عشر.

وأحياناً يحدث اتفاق على اختيار لغة إحدى الدول للقيام بلغة الوساطة كما حدث عندما قامت لغة السومريين بالوساطة بين اللغة البابليونية والآشورية والحيثية ، وغيرهم من الأمم ، وكما قامت اليونانية بدور اللغة الدولية ابتداء من عصر الإسكندر الأكبر حتى سقوط القسطنطينية ، وقامت اللاتينية بدور مماثل على نطاق واسع . ولا ننسى الفرنسية ودورها فى المحافل الدولية ، وتحاول الفرنسية إعادة مجدها القديم بعد أن نافستها اللغة الإنجليزية بحكم اعتمادها على القوة الحربية والاقتصادية الجبارة لأمريكا .

ولعل الفلاسفة كانوا البادئين فى تزعم الابتعاد عن اختيار إحدى اللغات السائدة ، ولذا اتجهوا إلى خلق لغة جديدة تقوم بهذا الدور الدولى الهام ، ويقبلها الجميع بغض النظر عن اختلاف قومياتهم وتمسكهم بلغتهم الأثيرة . ومن هنا تبنّى الفيلسوف الألمانى لايبنتز فى القرن الثامن عشر فكرة إنشاء لغة بسيطة واضحة وعقلانية خالية من شوائب اللغات السائدة ، ثم ظهر نمساوى آخر هو شلاير **Schleyer** الذى سمى لغته فولابوك **Volapük** وعقدت ثلاثة مؤتمرات أسفرت عن ترحيب مليون من مختلف الجنسيات بهذه اللغة الجديدة .

وابتكر بولندى يدعى الدكتور زامنهوف Zamenhof أشهر هذه اللغات الدولية ، أى الإسبرانتو Esperantc التى تقوم على مبدأ اختيار صوت واحد للتعبير عن كلمة واحدة . واعترفت هيئات دولية كثيرة بها ، وعلى الأخص فى المسائل التلغرافية وفى هيئة الأمم ، ودرست هذه اللغة فى ١٨ دولة . وظهرت صورة منقحة للإسبرانتو تحت اسم «إيدو» . واقترح الأستاذ جوزيبى بيانو عالم الرياضيات الإيطالى (١٨٥٨ – ١٩٣٢) لغة عالمية مستمدة من اللاتينية بعد تحريرها من كل صعوباتها . وسماها Lation Sine Flexione وتحمس المثقفون لهذه اللغة، وهكذا توالت الاقتراحات ، ومن بينها اقتراح اللغوى الدانمراكى أونويسبرسن المسمى نوفيال ، ومحاولة لتجديد فكرة للإسبرانتو قام بها اللغوى السويسرى رينيه دوسوسييه سميت بالنوف إسبرانتو .

وآخر هذه المبتكرات من صنع الجمعية الدولية للغات I.A.L.A ، وتعتمد نظريتها على عدم الحاجة إلى أى لغة مصطنعة للتخاطب الدولى ؛ لأن مثل هذه اللغة موجودة بالفعل فى صورة مصطلحات وتراكيب شائعة بين الدول المتحضرة : أى أن هذه اللغة منتزعة من لغات أوربا ، أو بمثابة قاسم مشترك أعظم بينها ، ولعلها قد اعتمدت على مصطلحات العلم الذى اتخذ طابعاً دولياً فى القرون الأخيرة . ولم تعد مصطلحاته تترجم بل تنقل فى الأغلب حتى دون تحوير يتناسب مع اختلاف اللهجات واللغات ، ولعل الدول الأوربية الصغيرة كانت أهم المتحمسين لهذه اللغة الجديدة ؛ لأنها لا تسعى للسيطرة الدولية ، أو لا تهتم بجعل لغتها هى اللغة الدولية السائدة .

ويقول الأستاذ الدكتور وافى : إن كل هذه اللغات الدولية المصطنعة لا تلبث بعد تداولها على الألسنة أن تخضع لجميع القوانين التى تخضع لها اللغات الطبيعية ؛ فمادام أفراد الأمم الناطقة مختلفين فى الأصل والتكوين الطبيعى وأعضاء النطق والظروف الجغرافية والطبيعية والاجتماعية المحيطة بهم فلابد أن تختلف هذه اللغات الصناعية فى كلماتها ودلالتها وقواعدها بالاختلاف فى العصور واختلاف الشعوب ، وتنقسم إلى لهجات تختلف كل واحدة منها ، وما عداها وتتفرع منها لغات عامية ، وتتسع الهوة بين لهجاتها قليلاً قليلاً حتى تنفصل كل لهجة منها عما عداها وتصبح غير مفهومة إلا لأهلها . . .

وهكذا لا يمضى زمن قصير حتى يتولد من هذا العلاج المشكلة نفسها التى يحاولون القضاء عليها . ثم استشهد الأستاذ الدكتور وافى بآيتين كريمتين : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) هود ١١٨ ، ١١٩ و (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين) الروم ٢٢ .

ونحن من ناحيتنا نرى أن المستقبل فى عالم الغيب ، وما حدث فى الماضى ليس من المحتم أن يتكرر مرة أخرى . والأحداث فى هذا القرن تتوالى فى سرعة لم تعرفها البشرية قط . ومن يدرى ؟ فلربما اقتربنا من تحقيق حلم يراود الكثيرين ، ولربما ظهرت اللغة العالمية بصورة طبيعية مختلفة عن جميع المحاولات والاجتهادات والتكهنات ، ويومئذ ستفسر الآيات الكريمة تفسيرًا آخر يتناسب مع وضعنا الجديد .

المراجع

١ – أحمد أمين – ضحى الإسلام وظهر الإسلام طبعة سنة ١٩٥٢ لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٢ – د. على عبد الواحد وافى – علم اللغة (١٩٥٠) لجنة البيان العربى.

٣ – Bram (Joseph) Language & Society New York University-Random House 1966.

٤ – Cooper (David)-Philosophy & the Nature of Language (Longman 1973).

٥ – Kedourie (Elie) Nationalism (Hutchinson University Library 1967).

٦ – Man, Culture & Society Edited by Shapiro Language & Writing by Harry Hoijer (Oxford 1960).

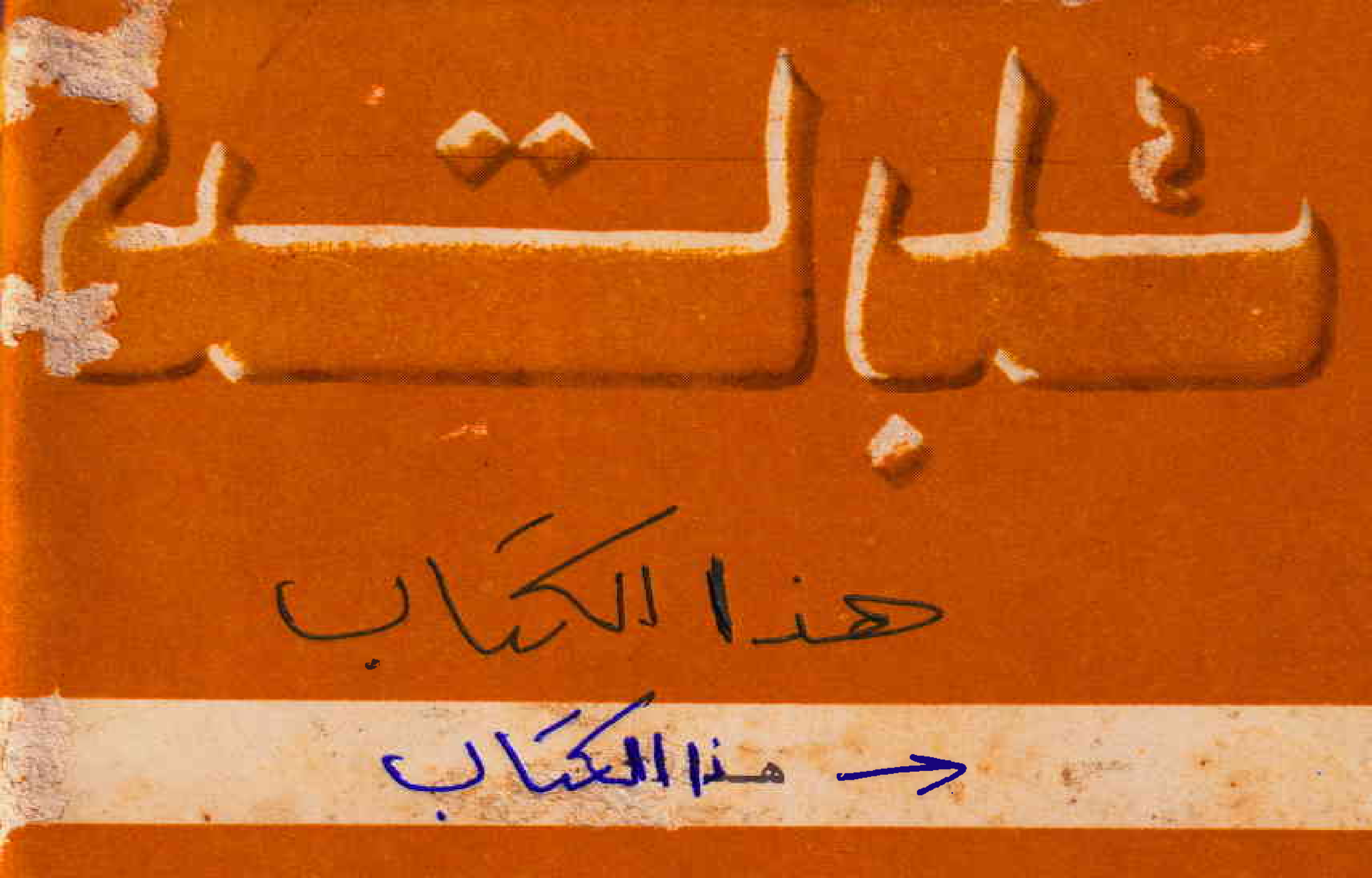
الفهرس

صفحة

رقم الإيداع	٥٢٧٦/١٩٧٧
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ١١٤ – ٤

١٥٤/٧٧/١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



هذا الكتاب

اللغة ظاهرة عادية فى حياتنا . . إلا أنها ليست فطرية أو آلية كما تبدو للوهلة الأولى . فاللغة نسق من الرموز الصوتية التى شاعت بوسائل شتى . . وهى عامل أساسى فى ظهور الصلات الاجتماعية بين البشر . . وفى التوفيق بين الحضارات . . وإحداث التفاهم المتبادل بين الشعوب . .

وهذا البحث يتناول أصل اللغة وتفاعلها مع الإنسان والمجتمع والبشرية جميعاً . . وأثرها فى المستوى العلمى والفكرى والسلوكى للأفراد والدول .

١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قام بإعداد هذه النسخة pdf
وفهرستها ورفعها :
د محمد أحمد محمد عاصم
نسألكم الدعاء